﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ (٨١)

ويقولون طاعة : ويقول أهل النّفاق[١] للنّبيّ ﷺ إذا أمرهم بأمر : أمرك طاعة ، ولك منّا طاعةٌ فيما تأمرنا به وتنهانا عنه[٢] .

فإذا برزوا من عندك : فإذا خرجوا من عندك يا محمّد[٣] .

بيّت طائفةٌ منهم غير الذي تقول : غيّر جماعةٌ منهم ليلاً الذي تقول لهم . وكلّ عملٍ عمل ليلاً فقد بيّت . ومن ذلك بيّت العدوّ وهو الوقوع بهم ليلاً[٤] .

والله يكتب ما يبيّتون : أي يعلمه ويكتبه عليهم بما يأمر به حفظته الكاتبين الذين هم موكلون بالعباد ، والمعنى في هذا التّهديد[٥] .

فأعرض عنهم : أي اصفح عنهم واحلم عليهم ولا تؤاخذهم ولا تكشف أمورهم للنّاس ولا تخف منهم أيضاً[٦] .

وكفى بالله وكيلاً : وكفاك بالله ، أي وحسبك بالله وكيلاً ، أي فيما يأمرك ووليًّا لها ودافعاً عنك وناصراً[٧] .

مِنَ الذين يعصون الله تعالى ورسوله الكريم ، ولا يطيعونهما المنافقون . ومع ذلك فإنّ المنافقين الذين يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم حينما يأمرهم المصطفى ﷺ بوحيٍ من ربّه فيما فيه صلاحهم في دينهم ودنياهم يقولون : أمرك طاعةٌ فيما تأمرنا به وتنهانا عنه . فإذا برزوا من عند المصطفى ﷺ وخرجوا من عنده عليه الصّلاة والسّلام بيّت طائفةٌ منهم غير الذي تقول وتزعم بأنّ أمره عليه الصّلاة والسّلام طاعة ، ونقضوا باللّيل ما أبرموا بالنّهار وفي حضرة المصطفى ﷺ من طاعة وقرّروا العصيان . وهذا العصيان للرّسول ﷺ عصيانٌ في الحقيقة لله تعالى فقد بيّنت هذا المعنى بوضوحٍ الآية الكريمة السّابقة . وإنّ ربّ العزّة يأمر الملائكة الحفظة ، الكرام البررة ، بأن يكتبوا عصيان القوم ويدوّنوا ما بيّت القوم من سوءٍ بالإسلام ورسول الإسلام والمؤمنين ، وما أعلنوه ليلاً وأخفوه نهاراً .

---

(١) تفسير الطّبريّ ١١٣/٥ .
(٢) تفسير الطّبريّ ١١٢/٥ ، ١١٣ .
(٣) تفسير الطّبريّ ١١٢/٥ .
(٤) تفسير الطّبريّ ١١٢/٥ .
(٥) تفسير ابن كثير ٥٢٩/١ .
(٦) تفسير ابن كثير ٥٢٩/١ .
(٧) تفسير الطّبريّ ١١٣/٥ .

وبما أنّ المنافقين بطبعهم عاجزون مقهورو الإرادة لا يجرءون على القيام بأيّ عملٍ إيجابيّ إلّا بإيحاء أعداء الإسلام ووعودهم المعسولة بالوقوف صفًّا مع إخوانهم المنافقين ضدّ الإسلام وأهله ، وبما أنّ الفئة المؤمنة بقيادة المصطفى ﷺ قارعت الباطل وتقارعه وأذلّت معطسه في بدرٍ ، فمعنى هذا أنّ المنافقين موجودون في السّاحة الإسلامية بالضّرورة لأنّ كفر النّفاق هذا واستمرار وجوده ونماءه وتمكّن السّلبيّة منه مقياسٌ دقيق ومؤشّر بارع لقوّة الإسلام المطّردة النّماء . وأملاً في صلاح القوم وعودتهم إلى بارئهم جلّ وعلا تأمر الآية الكريمة المصطفى ﷺ أن يعرض عن أولئك المنافقين ، بأن يصفح عنهم ويحلم عليهم وألّا يكشف أمرهم للنّاس وألّا يخاف منهم فإنّهم بمثابة الضّبّ في الجحر ولو خرج لسهل اصطياده . وتأمر الآية الكريمة المصطفى ﷺ بأن يتوكّل على الله تعالى وكفى بالله وكيلاً يتولّى أمورك أيّها الرّسول الكريم ويرعى مصالحك .

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾

لا يكاد ينتهي العجب من مشركي مكّة ومنافقي المدينة وما حولها من الأعراب الذين يقفون من القرآن الكريم موقف التّكذيب وهم العرب الأقحاح الذين لا يمكن أن يغيب عليهم وعلى أمثالهم ما في القرآن الكريم من جميل النّظم وجليل المعنى وهو الّذي أنزله ربّ العزّة بلسانٍ عربيّ مبين ، كي يفهمه العرب أوّلاً ويتذوّقوا حلاوة نظمه وسحر جرسه وجمال مبناه وجلال معناه . وإنّ الآية الكريمة في أسلوب الإنكار تسأل : أفلا يتدبّرون القرآن ويتأمّلون ما فيه من بديع المعنى ، وساحر اللّفظ ، وإحكام النّسج ، وصحّة الحكم ، وتلاؤم النّظم ، واستقرار الفاصلة ، وتصديق بعضه بعضاً ، وتفسير بعضه بعضاً .

إنّ هذا الكتاب العزيز الذي يتجلّى الإعجاز القرآني في كلّ آيٍ من آيه ، وسورةٍ من سوره ، والذي فيه أسرار المعاني والمباني وما لا يحيط به إلّا عالم السّرّ في السّماوات والأرض لو كان مفترىً من عند غير الله تعالى لوجدوا فيه ، وهم الحريصون على الطّعن عليه والتّكذيب له ، اختلافاً كثيراً ، اضطراباً في نظمه وتضادّاً في معانيه . إنّ اتّساق المعاني والمباني يُفْضي بكلّ منصفٍ في النّظر والتّأمّل إلى أن هذا الكتاب العزيز كلام ربّ العالمين لأن البشر وغيرهم ليس في مقدورهم متفرّقين ومجتمعين أن يأتوا بسورةٍ واحدة من مثل أقصر سوره ، وهذه الحقيقة لا تزداد ببياض النّهار وسواد اللّيل إلّا رسوخاً . لقد كان المنتظر من كلّ من أكرمه الله تعالى بمعرفة هذا اللّسان العربيّ أن يتدبّر القرآن الكريم

ويتذوّقه ويؤمن بأنّه كلام ربّ العالمين ويترجم تعاليمه إلى عمل . والعجب كلّ العجب من الذين يفعلون غير ذلك فكيف بهم إذا فعلوا عكس كلّ ذلك ؟

وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾

وإذا جاءهم : وإذا جاء هذه الطّائفة المبيّتة غير الذي تقول للنبيّ ﷺ[١] .

أمرٌ من الأمن أو الخوف : خبرٌ عن سريّة للمسلمين غازية بأنّهم قد أمنوا من عدوّهم بغلبتهم إيّاهم . أو الخوف . يقول : أو تخوّفهم من عدوّهم بإصابة عدوّهم منهم[٢] .

أذاعوا به : عن ابن عبّاس : أفشوه وشنّعوا به[٣] وأعلنوه[٤] قتادة : سارعوا به وأفشوه[٥] .

ولو ردّوه إلى الرّسول وإلى أولي الأمر منهم : ولو ردّوا الأمر الذي نالهم من عدوّهم والمسلمين إلى رسول الله ﷺ وإلى أولي أمرهم ، يعني وإلى أمرائهم وسكتوا فلم يذيعوا ما جاءهم من الخبر حتّى يكون رسول الله ﷺ أو ذوو أمرهم هم الذين يقولون الخبر عن ذلك بعد أن ثبتت عندهم صحّته أو بطوله فيصحّحوه إن كان صحيحاً أو يبطلوه إن كان باطلاً[٦] .

لعلمه الذين يستنبطونه منهم : لعلم حقيقة ذلك الخبر الذي جاءهم به الذين يبحثون عنه ويستخرجونه منهم ، يعني أولي **الأمر**[٧] ومعنى يستنبطونه أي يستخرجونه من **معادنه**[٨] وكلّ مستخرج شيئاً كان مستتراً عن أبصار العيون أو عن معارف القلوب فهو له مستنبطٌ . يقال : استنبطت الرّكيّة إذا استخرجت ماءها ونبطتها . والنّبط : الماء المستنبط من الأرض ، ومنه قول الشاعر :

---

(١) انظر تفسير الطّبريّ ٥/١١٤ .
(٢) تفسير الطّبريّ ٥/١١٤ .
(٣) تفسير الطّبريّ ٥/١١٤ .
(٤) تفسير الطّبريّ ٥/١١٤ .
(٥) تفسير الطّبريّ ٥/١١٤ .
(٦) تفسير الطّبريّ ٥/١١٥ .
(٧) تفسير الطّبريّ ٥/١١٥ .
(٨) تفسير ابن كثير ١/٥٣٠ .

قريبٌ ثراه ما يَنَــــــالُ عدوُّه　　　له نَبَطــــاً آبى الهوان قطــــوبُ

يعني بالنّبط الماء **المستنبط**[1] .

تواصل الآية الكريمة حديثها عن المنافقين الذين يستعملون كلّ وسائل الكيد والاحتيال من أجل إيصال صنوف الأذى للإسلام والمسلمين . ومن هذه الوسائل سلاح إطلاق الشّائعات الخبيث الخطير بقصد إحداث البلبلة في صفوف المسلمين وتفتيت وحدتهم وتمزيق شملهم . ولا يتورّع المنافقون عن إطلاق الشّائعات ضدّ المصطفى ﷺ والمسلمين في حالة الأمن أو في حالة الخوف ، في حالة السّلم أو في حالة الحرب .

جاء في الحديث المتّفق على صحّته أنّ عمر بن الخطّاب رضي الله عنه « حين بلغه أنّ رسول الله ﷺ طلّق نساءه فجاء من منزله حتّى دخل المسجد فوجد النّاس يقولون ذلك فلم يصبر حتّى استأذن على النّبيّ ﷺ فاستفهمه : أطلّقت نساءك ؟ فقال : لا . فقلت : الله أكبر . وذكر الحديث بطوله . وعند مسلم فقلت : أطلّقتهنّ ؟ فقال : لا . فقمت على باب المسجد فناديت بأعلى صوتي : لم يطلّق رسول الله ﷺ نساءه ونزلت هذه الآية : وإذا جاءهم أمرٌ من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردّوه إلى الرّسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم . فكنت أنا استنبطت ذلك الأمر[1] .

إنّ أولئك المنافقين الذين لا يألون المؤمنين خبالاً ولا يقصّرون في اللّجوء إلى أيّ وسيلةٍ تلحق الفساد بالمؤمنين إذا جاءهم عن سرايا رسول الله ﷺ وأمرائه أمرٌ من الأمن أو الخوف ، وخبرٌ من النّصر والغنيمة ، والفشل والهزيمة ، كانوا صدى كلّ ناعقٍ بالحقّ وبالباطل فأذاعوه على الملأ ، ونشروه في كلّ مكانٍ ، وشنّعوا به في كلّ موضع ، وسارعوا به إلى كلّ أذن ولسان .

ولو أنّهم كانوا مؤمنين حقًّا وحريصين على ما ينفع الإسلام والمسلمين لردّوا ذلك الأمر إلى الرّسول وإلى أولي الأمر منهم ، وأرجعوا ذلك الخبر إلى المصطفى ﷺ وإلى أولي الفقه والعقل ، ولعلمه على حقيقته الذين يستنبطونه منهم والذين لديهم القدرة على استكناه فحواه ومضمونه ، فإن كان صدقاً وخيراً أذاعوه ، وإن كان كذباً وشرّاً طووه . إنّ هذه هي تعاليم الإسلام وذلك هو خلق المسلم . روى مسلم عن أبي هريرة عن النّبيّ ﷺ قال : كفى بالمرء كذباً أن يحدّث بكلّ ما سمع[3] وفي الصّحيحين عن المغيرة بن شعبة أنّ

---

(1) تفسير الطّبريّ ٥/١١٥ .

(2) تفسير ابن كثير ١/٥٣٠ .

(3) تفسير ابن كثير ١/٥٢٩ .

رسول الله ﷺ نهى عن قيل وقال ، أي الذي يكثر من الحديث عمّا يقول النّاس من غير تثبّت ولا تدبّر ولا تبيّن[1] .

وتبيّن الآية الكريمة في تذييلها بأنّه لولا فضل الله تعالى على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم ، ولولا رحمة الله تعالى التي تتابع المؤمنين في كلّ خطوةٍ من خطوات حياتهم فتسدّدها ، لاتّبعتم الشّيطان أيّها المؤمنون إلّا قليلاً منكم . ومن مظاهر التّسديد من الله تعالى لخطاكم إرشادكم إلى الطّريقة المثلى التي تتعاملون بها مع كلّ نبأ يجيئكم وكلّ خبر يصل إليكم .

فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا ﴿٨٤﴾

والله أشدّ بأساً وأشدّ تنكيلاً : والله أشدّ نكايةً في عدوّه من أهل الكفر به منهم فيك يا محمّد وفي أصحابك فلا تنكلنّ عن قتالهم فإنّي راصدهم بالبأس والنّكاية والتّنكيل والعقوبة لأوهن كيدهم وأضعف بأسهم وأعلي الحقّ عليهم . والتّنكيل مصدر من قول القائل : نكّلت بفلانٍ فأنا أنكّل به تنكيلاً إذا أوجعته عقوبةً[2] .

تخاطب الآية الكريمة المصطفى ﷺ بأن يقاتل في سبيل الله تعالى ويجاهد في سبيل إعلاء كلمة الله التّوحيد لأنّ الجهاد في سبيل الله تعالى فرض عينٍ عليه ، فعليه أن يقاتل في سبيل الله تعالى ، ولو كان عليه الصّلاة والسّلام وحده في ميدان القتال ، فإنّه عليه الصّلاة والسّلام مسئولٌ عن ذاته الشّريفة ، وقد كلّفه الله تعالى بهذا الواجب فهو فرضٌ عليه كما أنّ عليه ﷺ أنّ يحرّض المؤمنين على القتال ويحضّهم على الجهاد ويحثّهم على بذل النّفس والنّفيس في سبيل مرضاته جلّ وعلا . إنّه عليه الصّلاة والسّلام بشأن ذاته الشّريفة مكلّفٌ بالجهاد ، وبشأن المؤمنين مكلّفٌ بتحريضهم عليه ، كما قال ﷺ يوم بدرٍ وهو يسوّي الصّفوف : قوموا إلى جنّةٍ عرضها السّماوات والأرض[3] عليه ﷺ البلاغ وعلى الله تعالى الحساب .

---

(١) تفسير ابن كثير ١/٥٣٠ .

(٢) تفسير لطبريّ ٥/١١٧ .

(٣) تفسير ابن كثير ١/٥٣٠ .

إنّه بجهاده عليه الصّلاة والسّلام وحثّ المؤمنين سيكفّ ربّ العزّة بأس الذين كفروا وبطشهم وجبروتهم . والله سبحانه وتعالى هو الأشدّ بأساً فلا يقاس بأس المشركين به ، وهو الأشدّ بالكافرين تنكيلاً ، عقوبةً لهم وزجراً لأمثالهم .

روى البخاريّ عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : إنّ في الجنّة مائة درجة أعدّها الله للمجاهدين في سبيل الله ، بين كلّ درجتين كما بين السّماء والأرض ، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنّه وسط الجنّة وأعلى الجنّة ، وفوقه عرش الرّحمن ، ومنه تفجّر أنهار الجنّة[(١)] .

مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾

الكفل : النّصيب والحظّ من الوزر والإثم[(٢)] واشتقاقه من كِفْل البعير فإنّه لمّا كان مركباً ينبو براكبه صار متعارَفاً في كلّ شِدّة فيقال : لأحملنّك على الكِفْل[(٣)] .

مقيتاً : المقيت القدير[(٤)] والمقتدر[(٥)] .

تبيّن الآية الكريمة أنّ من يشفع شفاعةً حسنة ويكن واسطة خيرٍ ونفع يكن له نصيبٌ من الأجر وحظٌّ من الثّواب ما دامت الحسنة مستمرّةً والعمل الصّالح باقياً ، وإنّ من يشفع شفاعةً سيّئةً ويكن واسطة شرّ وبلاء يكن له نصيب من الوزر وحظٌّ من الإثم ما دامت السّيّئة مستمرّة والعمل الطّالح باقياً . وتقرّر الآية الكريمة أنّ الله سبحانه وتعالى قديرٌ على كلّ شيءٍ ويعلم ما توسوس به كلّ نفس وما يستتر في كلّ صدر .

ثبت في الصّحيح عن النّبيّ ﷺ أنّه قال : اشفعوا تؤجروا ويقضي الله على لسان نبيّه ما شاء[(٦)] .

---

(١) تفسير ابن كثير ٥٣١/١ .

(٢) تفسير الطّبريّ ١١٧/٥ .

(٣) مفردات الرّاغب ص ٤٣٦ .

(٤) تفسير الطّبريّ ١١٨/٥ .

(٥) الجلالين .

(٦) تفسير ابن كثير ٥٣١/١ .

﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ ﴾

حسيباً : محاسباً[١] .

الآية الكريمة تقدّم درساً من دروس الإسلام متعلّقاً بإلقاء السّلام وردّه . قال الحسن البصريّ : السّلام تطوّع والرّدّ فريضة[٢] فمن لم يردّ السّلام يأثم . وهذا الذي قاله الحسن هو قول العلماء قاطبة : إنّ الرّدّ واجبٌ على من سلّم عليه فيأثم إن لم يفعل لأنّه خالف أمر الله[٣] وإنّ خير ما يبيّن معنى قوله تعالى : ﴿ وإذا حييتم بتحيّةٍ فحيّوا بأحسن منها أو ردّوها ﴾ مثل هذا القول عن سلمان الفارسي[٤] : « قال : جاء رجلٌ إلى النّبيّ ﷺ فقال : السّلام عليك يا رسول الله . فقال : وعليك ورحمة الله . ثمّ جاء آخر فقال : السّلام عليك يا رسول الله ورحمة الله ، فقال له رسول الله : وعليك ورحمة الله وبركاته . ثمّ جاء آخر فقال : السّلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته فقال له : وعليك . فقال له الرّجل : يا نبيّ الله ، بأبي أنت وأمّي ، أتاك فلانٌ وفلانٌ فسلّما عليك فرددت عليهما أكثر ممّا رددت عليّ فقال : إنّك لم تدع لنا شيئاً . قال الله : وإذا حيّيتم بتحيّة فحيّوا بأحسن منها أو ردّوها فرددناها عليك » .

ولإلقاء السّلام وردّه أطيب الأثر في النّفوس والقلوب ، وإنّ مثل هذا الحديث الشّريف لينصّ على هذه الحقيقة . عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : والذي نفسي بيده ، لا تدخلوا الجنّة حتّى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتّى تحابّوا . أفلا أدلّكم على أمرٍ إذا فعلتموه تحاببتم ؟ أفشوا السّلام بينكم[٥] .

إنّ القول : السّلام عليكم ، يتضمّن السّلام والأمن والطّمأنينة التي يريدها من ألقى السّلام للّذين سلّم عليهم . ولهذه المعاني السّامية النّبيلة أحسن الأثر على المجتمع ولإلقاء السّلام وردّه دلالة بالغة على الوئام والمحبّة اللذين يسودان المجتمع المسلم .

وتقرّر الآية الكريمة أنّ الله سبحانه وتعالى محاسبٌ العبد على كلّ شيءٍ حسن وغير حسن . ومن الحسن إلقاء السّلام وردّه . ومن السّيّء عدم إلقاء السّلام أو عدم ردّه .

---

(١) الجلالين .
(٢) تفسير الطّبريّ ٥/١٢٠ .
(٣) تفسير ابن كثير ١/٥٣٢ .
(٤) تفسير الطّبريّ ٥/١٢٠ .
(٥) تفسير ابن كثير ١/٥٣٢ .

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ﴿٨٧﴾ ﴾

بيّنت الآية الكريمة السّابقة أنّ الله سبحانه وتعالى محاسبٌ على كلّ شيء . ومن متعلّقات الحساب يوم القيامة البعث والجزاء ، الثّواب أو العقاب بعد جمع الخلائق لفصل الحساب . وإنّ الآية الكريمة التي نحن بصددها لتقرّر بعض هذه المعاني وتبيّن أنّ الله سبحانه وتعالى لا إله إلّا هو ، ولا معبود بحقّ إلّا هو جلّ وعلا الذي له الخلق والأمر وحده لا شريك له . وتقسم الآية الكريمة أنّ الله سبحانه وتعالى سيجمع الخلائق إلى يوم القيامة الذي لا ريب فيه ولا شكّ : ﴿ ليجمعنّكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ﴾ وهذه اللّام موطّئةٌ للقسم[(١)] والمعنى : واللهِ ليجمعنّكم من قبوركم في يوم القيامة[(٢)] .

ومن أصدق من الله حديثاً ؟ لا أحد أصدق من الله تعالى حديثاً وقيلاً جلّ وعلا .

---

(١) تفسير ابن كثير ١/٥٣٢ .

(٢) الجلالين .

مَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ؟

الآيات : ٨٨ - ٩١

﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (٨٨)﴾

سبب النّزول :

بين يدي ذكرنا لما قيل في أسباب النّزول نودّ أن ننبّه إلى أمرين اثنين . أحدهما أنّ الآية الكريمة في المنافقين ، والمعروف أنّ صفة النّفاق إنّما ظهرت بعد الهجرة وبروز قوّة المسلمين الذين قهروا الكافرين في المدينة فكتموا كفرهم وأعلنوا إسلامهم . وأخراهما أنّ الآية الكريمة التّالية تنصّ على وجوب هجرة هؤلاء المنافقين إلى المدينة المنوّرة كي يتّخذهم المؤمنون أولياء ، وعليه فالذين تعنيهم الآية الكريمة السّابقة وهذه الآية الكريمة اللّاحقة منافقون من خارج المدينة المنوّرة .

روى البخاريّ[1] عن زيد بن ثابتٍ رضي الله عنه : فما لكم في المنافقين فئتين . رجع ناسٌ من أصحاب النّبيّ ﷺ من أحد وكان النّاس فيهم فرقتين فريقٌ يقول : اقتُلْهُمْ وفريقٌ يقول : لا . فنزلت : فما لكم في المنافقين فئتين وقال : إنّها طيّبة تنفي الخبث كما تنفي النّار خبث الفضّة[2] وروى الحديث الإمام مسلم والإمام أحمد[3] وقال آخرون : بل نزلت في اختلافٍ كان بين أصحاب رسول الله ﷺ في قومٍ كانوا قدموا المدينة من مكّة فأظهروا للمسلمين أنّهم مسلمون ثمّ رجعوا إلى مكّة وأظهروا لهم الشّرك[4] إلى غير ذلك من أسباب[5] .

والله أركسهم : الرّكس ، بفتح الرّاء قلب الشّيء على رأسه وردّ أوّله إلى آخره ، يقال : أركسته فرُكِس وارتكس في أمره ، قال تعالى : والله أركسهم بما كسبوا : أي ردّهم إلى كفرهم[6] .

تخاطب الآية الكريمة المؤمنين الذين اختلفوا في المنافقين قائلةً : ما شأنكم أيّها المؤمنون انقسمتم في المنافقين فريقين ، فريقاً يحكم عليهم بالكفر بسبب أعمالهم التي لا تصدر إلّا من كافر ، وفريقاً يحكم عليهم بالإيمان بسبب أقوالهم الموافقة لأقوال المؤمنين من نطقٍ بالشّهادتين وما إلى ذلك . إنّ الله سبحانه وتعالى الذي لا يخفى عليه أفعال المنافقين

(١) صحيح البخاريّ ٥٩/٦ .
(٢) في رواية : خبث الحديد .
(٣) تفسير ابن كثير ٥٣٢/١ .
(٤) تفسير الطّبريّ ١٢١/٥ .
(٥) انظر تفسير الطّبريّ ١٢١/٥ — ١٢٣ .
(٦) مفردات الرّاغب ص ٢٠٢ .

وأقوالهم وما يضمرونه في سرائرهم قد أركسهم وردّهم على أعقابهم إلى الكفر بسبب أعمالهم الخبيثة ونواياهم السّيّئة التي انقلبوا بها كافرين فزادهم الله تعالى ضلالاً إلى ضلالهم وعمى بصائر إلى عماهم وكفراً إلى كفرهم . إنّ من يضلله الله بسبب ضلاله وانصرافه عن الحقّ وإعراضه عمداً عن الهدى فلن تجد له أيّها المؤمن سبيلاً إلى الهدى وطريقاً إلى الرّشاد ، بل تجده في ضلاله سادراً وبين جنبات حيرته متردّداً .

وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَآءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾

تقرّر الآية الكريمة أنّ المنافقين الذين يضمرون الكفر يتمنّون في أعماقهم لو أنّ المؤمنين تحوّلوا مثلهم كفّاراً كي يكونوا جميعاً سواء في بغض الإسلام وأهله . ونستطيع أن نفهم أنّ المنافقين يتمنّون ذلك بدافع الحسد للمؤمنين الذين أكرمهم الله تعالى بنعمة الإيمان . والآية الكريمة تأمر المؤمنين ألّا يتّخذوا من أولئك المنافقين أولياء وألّا يأمنوهم ويطمئنّوا إلى وجودهم بينهم واندساسهم فيهم حتّى يهاجر أولئك المنافقون في سبيل الله تعالى وابتغاء مرضاته جلّ وعلا بأن يتحوّلوا من بلاد الكفر إلى بلاد الإيمان حيث يستطيعون أن يترجموا إلى عمل تعاليم دين الإسلام ، وبهذه الهجرة الظّاهرة يعطي القوم الدّليل على الهجرة الباطنة المتمثّلة في هجر ما نهى الله تعالى عنه ونهى رسوله الكريم صلوات الله وسلامه عليه ، وبتحقّق الهجرتين الظّاهرة والباطنة يأمنهم بإذن الله تعالى المؤمنون .

أمّا إذا أعرض المنافقون عن دعوة الخير هذه وتولّوا ، بأن امتنعوا عن الهجرة مثلاً ، وامتنعوا عن امتثال تعاليم الإسلام ، أو أظهروا الكفر[1] فإنّ الآية الكريمة تأمر المؤمنين بأن يأخذوهم بقوّة ، ويشدّوا وثاقهم ، ويقتلوهم حيث وجدوهم . كما تأمر الآية الكريمة ألّا يتّخذ المؤمنون منهم وليًّا ولا نصيراً ينتصرون به على عدوّهم .

(١) انظر مثلاً تفسير الطّبريّ ١٢٤/٥ .

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ ﴾

إلّا الذين يصلون إلى قومٍ بينكم وبينهم ميثاق : إلّا الذين وصلوا منهم إلى قومٍ بينكم وبينهم موادعة وعهد وميثاق فدخلوا فيهم وصاروا منهم ورضوا بحكمهم[١] ولجأوا وتحيّزوا إلى قومٍ بينكم وبينهم مهادنة أو عقد ذمّة فاجعلوا حكمهم كحكمهم[٢] .

حصرت صدورهم : ضاقت صدورهم[٣] .

وألقوا إليكم السّلم : المسالمة[٤] والاستسلام[٥] والصّلح[٦] .

هذه الآية الكريمة والتي تليها منسوختان بقوله تعالى ذكره في سورة براءة[٧] : ﴿ فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كلّ مرصد . فإن تابوا وأقاموا الصّلاة وآتوا الزّكاة فخلّوا سبيلهم . إنّ الله غفورٌ رحيم ﴾[٨] .

أمرت الآية الكريمة السّابقة المؤمنين بأن يقتلوا المنافقين الذين تولّوا وأصرّوا على موالاة الكافرين وعلى عدم الهجرة دليلاً على أنّ ما يظهرون من إسلام ليس حقيقيًّا . وتستثني الآية الكريمة التي نحن بصددها فريقين ، وقد عرفنا أنّ هذا الاستثناء مؤقّت فقد نسخته سورة براءة ، الفريق الأوّل هو الفريق الذي لحق بقومٍ بينهم وبين المسلمين عهدٌ مؤكّد ، فإنّ حكم المعاهدين ينسحب على هذا الفريق الذي لحق بالمعاهدين ووصل إليهم . « وفي صحيح البخاريّ في قصّة صلح الحديبية : فكان من أحبّ أن يدخل في صلح قريشٍ وعهدهم ، ومن أحبّ أن يدخل في صلح محمّد ﷺ وأصحابه وعهدهم »[٩] والفريق الآخر هو الفريق الذي جاء أفراده إلى المسلمين محايدين لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، قد ضاقت صدورهم أن يقاتلوا المسلمين في صفّ قومهم أو أن يقاتلوا قومهم في صفّ

---

(١) تفسير الطّبريّ ١٢٤/٥ .
(٢) تفسير ابن كثير ٥٢٣/١ .
(٣) تفسير الطّبريّ ١٢٤/٥ .
(٤) تفسير ابن كثير ٥٢٣/١ .
(٥) تفسير الطّبريّ ١٢٥/٥ .
(٦) تفسير الطّبريّ ١٢٦/٥ .
(٧) الآية ٥ .
(٨) تفسير الطّبريّ ١٢٧/٥ .
(٩) تفسير ابن كثير ٥٢٣/١ .

المسلمين . وتشير هذه الجزئيّة الكريمة : ﴿ ولو شاء الله لسلّطهم عليكم فلقاتلوكم ﴾ إلى فضل الله تعالى على المؤمنين إذ كفّ أيدي هذا الفريق عنهم ، وصرفه عن قتالهم ولو شاء جلّ وعلا تسليطهم على المؤمنين لفعل .

إنّ هؤلاء ما داموا قد اعتزلوا طريق المسلمين فلم يكونوا عليهم ولا لهم ، ولم يقاتلوا المسلمين ، وألقوا إلى المسلمين المصالحة وقيادهم واستسلموا لهم صلحاً منهم للمسلمين وسلماً[١] فما جعل الله سبحانه وتعالى للمؤمنين على أولئك سبيلاً فيقاتلهم المؤمنون ، وما جعل للمؤمنين طريقاً عليهم فيأخذوهم ويقتلوهم .

سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾

الفتنة : الشرك[٢] والاختبار[٣] .
أركسوا فيها : الإركاس : الرّجوع[٤] .
حيث ثقفتموهم : حيث أصبتموهم ولقيتموهم[٥] .
سلطاناً : حجّة[٦] .

تتحدّث الآية الكريمة عن فريقٍ خبيث يختلف عن الفريق السّابق في باطنه وفيما يضمر وإن اتّفق معه في الظّاهر . إنّ هذا الفريق منافقٌ ويمثّل أحطّ دركات النّفاق . إنّه يريد من ناحيةٍ أن يأمن المؤمنين بقيادة المصطفى ﷺ على دمه وعرضه وماله ، ووسيلته إلى ذلك أن يتظاهر بأنّه مسلمٌ لله ربّ العالمين . ويريد من ناحيةٍ أخرى أن يأمن المشركين من قومه ومن غيرهم فيعلن أ نّه غير مؤمن ، بل مشرك ، وحينما يطلب منه الدّليل على أنّه مشركٌ بالفعل لا يتردد في إعطاء الدّليل الأكيد على ذلك لأنّه قد شرح بالكفر صدراً .

---

(١) انظر تفسير الطّبريّ ٥/١٢٦ .
(٢) تفسير الطّبريّ ٥/١٢٦ .
(٣) تفسير الطّبريّ ٥/١٢٦ .
(٤) تفسير الطّبريّ ٥/١٢٧ .
(٥) تفسير الطّبريّ ٥/١٢٧ .
(٦) تفسير الطّبريّ ٥/١٢٧ .

وهكذا يتبيّن أنّ المراد بالفتنة الشّرك الذي أعلنه هذا المنافق ، كما يتبيّـن أنّ المراد بالإركاس في الفتنـة الرّجـوع إليها وذلك بإعطـاء الدّليـل العملـيّ الأكيـد على الشّرك وعلى أنّـه قد شرح بالكفر صدراً والعياذ بالله .

والآية الكريمة تحذّر هذا الفريـق من المنافـقين في هيئـة مخاطبـة المؤمـنين وهـم الذيـن أصبحـوا بفضل الله تعـالى قوّةً لا يستهان بها في جزيـرة العـرب آنــذاك ، في هيئـــة إرشاد المؤمنين إلى ما ينبغـي عملـه بالمنافـقين في حالـة إصرارهـم على تلـوّنهم ولـعبهم وعبثهـم . إنّ أولئك المنافقين إن لم يعتزلوا المؤمنين بترك قتال المؤمـنين ومحاولـة خداعهـم ، وإن لم يلقـوا إلى المؤمـنين المسالمة والصّلـح ، وإنْ لم يكفّـوا أيـديهم عن عمـــل كلّ ما من شأنـــه أن يسيء للمؤمنين من موالاةٍ في الباطن للمشركين فإنّ من حقّ المؤمـنين بل من واجبهم أن يأخذوهـم بقوّة ويضربوا على أيديهم بعنف ، ويحكموا شدّ وثاقهـم ، ويقتلوهـم في ميـدان القتـال وفي غير ميدان القتال ، بل في كلّ مكانٍ صادفوهم ولقوهم فيه . إنّ الله سبحانـه وتعـالى قد جعـل للمؤمنين سلطاناً بيّناً على أولئك المنافقين الخبثاء وحجّةً ظاهـرة ، فلا لوم عليهم ولا تثريب في كلّ ما يلحقونه من أذىً بأولئك المنافقين المخادعين .

مَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَئًا

وَحث على الجهاد والهجرة والصّلاة

الآيات : ٩٢ - ١٠٤

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ
مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ
أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ
وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ
مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ
إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ
فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ
ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾

وما كان لمؤمنٍ أن يقتل مؤمناً إلّا خطأً : ما ينبغي لمؤمنٍ أن يقتل مؤمناً إلّا خطأً . فقوله : وما كان ، ليس على النّفي وإنّما هو على التّحريم والنّهي كقوله : وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله[1] .

إلّا : بمعنى لكن . والتّقدير : ما كان له أن يقتله البتّة ، لكن إن قتله خطأً فعليه كذا . هذا قول سيبويه والزّجاج رحمهما الله . ومن الاستثناء المنقطع قوله تعالى : ما لهم به من علمٍ إلّا اتّباع الظّنّ[2] وقول جرير :

من البِيض لم تظعن بعيداً ولم تطأ على الأرض إلّا ذيل مِرْطٍ مُرَحَّل[3] .

كأنّه قال : لم تطأ على الأرض إلّا أن تطأ ذيل البُرْد[4] وليس ذيل البرد من الأرض[5] .

فتحرير رقبةٍ مؤمنة : فعليه تحرير رقبة[6] قال ابن عبّاس والحسن الشّعبيّ والنّخعيّ وقتادة وغيرهم : الرّقبة المؤمنة هي التي صلّت وعقلت الإيمان ، لا تجزىء في ذلك الصّغيرة ، وهو الصّحيح في هذا الباب . قال عطاء بن أبي رباح : يجزىء الصّغير المولود

(١) تفسير القرطبيّ ١٨٨١ .
(٢) تفسير القرطبيّ ١٨٨٢ .
(٣) المرحّل : ضربٌ من برود اليمن ، سمّي مرحّلاً لأنّ عليه تصاوير رحل .
(٤) تفسير القرطبيّ ٢٨٨٢ .
(٥) تفسير الطّبريّ د/١٢٨ .
(٦) تفسير القرطبيّ ١٨٨٤ .

بين المسلمين[١] والقاتل عمداً مثله ، بل أولى بوجوب الكفّارة عليه منه[٢] .

ودية : ما تُعطَى عن دم القتيل إلى وليّه[٣]

مسلّمة : مدفوعة مؤدّاة[٤] وثبتت الأخبار عن رسول الله ﷺ بأنّ الديّة مائةٌ من الإبل[٥] وثبتت الأخبار عن النّبيّ المختار محمّد ﷺ أنّه قضى بدية الخطأ على العاقلة ، وأجمع أهل العلم على القول به[٦] .

والعاقلة : العَصَبَة[٧] وقال أبو عمر : أجمع العلماء قديماً وحديثاً أنّ الدّية على العاقلة لا تكون إلّا في ثلاث سنين ولا تكون في أقلّ منها . وأجمعوا على أنّها على البالغين من الرّجال[٨] .

إلّا أن يصّدّقوا : أصله أن يتصدّقوا ، فأدغمت التّاء في الصّاد . والتّصدّق الإعطاء ، يعني إلّا أن يبرىء الأولياءُ ورثةُ المقتول القاتلين ممّا أوجب الله لهم من الدّية عليهم[٩] وأمّا الكفّارة التي هي لله تعالى فلا تسقط بإبرائهم ، لأنّه أتلف شخصاً في عبادة الله سبحانه ، فعليه أن يخلّص آخر لعبادة ربّه ، وإنّما تسقط الدّية التي هي حقٌّ لهم . وتجب الكفّارة في مال الجاني ولا تُتحمَّل[١٠] .

فإن كان من قومٍ عدوٍّ لكم وهو مؤمن : المعنى عند ابن عبّاسٍ وقتادة والسّدّيّ وعكرمة ومجاهد والنّخعيّ : فإن كان هذا المقتول رجلاً مؤمناً قد آمن وبقي في قومه وهم كفرة « عدوّ لكم » فلا دية فيه ، وإنّما كفّارته تحرير الرّقبة[١١] .

وإن كان من قومٍ بينكم وبينهم ميثاق : هذا في الذّمّيّ والمعاهَد يقتل خطأً فتجب الدّية والكفّارة . قاله ابن عبّاس والشّعبيّ والنّخعيّ والشّافعيّ[١٢] .

فمن لم يجد : أي الرّقبة ولا اتّسع ماله لشرائها[١٣] .

فصيام شهرين : أي فعليه صيام شهرين[١٤]

متتابعين : حتّى لو أفطر يوماً استأنف ، هذا قول الجمهور[١٥] قال مالك : وليس

---

(١) تفسير القرطبيّ ١٨٨٤ .
(٢) تفسير القرطبيّ ١٨٨٥ .
(٣) تفسير القرطبيّ ١٨٨٥ .
(٤) تفسير القرطبيّ ١٨٨٥ .
(٥) تفسير القرطبيّ ١٨٨٥ .
(٦) تفسير القرطبيّ ١٨٩٠ .
(٧) تفسير القرطبيّ ١٨٩٠ .
(٨) تفسير القرطبيّ ١٨٩٠ .
(٩) تفسير القرطبيّ ١٨٩٣ .
(١٠) تفسير القرطبيّ ١٨٩٣ .
(١١) تفسير القرطبيّ ١٨٩٣ .
(١٢) تفسير القرطبيّ ١٨٩٥ .
(١٣) تفسير القرطبيّ ١٨٩٧ .
(١٤) تفسير القرطبيّ ١٨٩٧ .
(١٥) تفسير القرطبيّ ١٨٩٧ .

لأحدٍ وجب عليه صيام شهرين متتابعين في كتاب الله تعالى أن يُفْطِرَ إلّا من عذرٍ أو مرضٍ أو حيض ، وليس له أن يسافر فيفطر[1] .

توبةً من الله : نصب على المصدر ، ومعناه رجوعاً[2] أو تخفيفاً من الله تعالى عليه بقبول الصّوم بدلاً عن الرّقبة ، ومنه قوله تعالى : علم الله أنّكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم ، أي خفّف . وقوله تعالى : علم أن لن تحصوه فتاب عليكم[3] وتجاوزاً من الله لكم إلى التّيسير عليكم بتخفيفه عنكم ما خفّف عنكم من فرض تحرير الرّقبة المؤمنة[4] .

تبيّن الآية الكريمة أنه ما ينبغي لمؤمنٍ أن يقتل مؤمناً إلّا خطأً . بمعنى أنّ قتل المؤمن أخاه المؤمن أمرٌ منهيٌّ عنه ومحرّم ، فما كان يصحّ لمؤمنٍ أن يفعل ذلك . والآية الكريمة تنصّ على صفة الإيمان في حقّ القاتل وكذلك المقتول ، والمعروف أنّ الإيمان قيد الفتك والإسلام قيد القتل . فإذا حصل بطريق الخطأ أن قتل مؤمنٌ مؤمناً فعليه تحرير رقبةٍ مؤمنةٍ ، كفاء قتله نفساً مؤمنةً كانت تعبد الله تعالى ، وكأنّ الرّقبة المحرّرة تعبد الله تعالى مقابل عبد الله تعالى المقتول . وتحرير الرّقبة المؤمنة هو كفّارة القتل خطأً كما أنّ على القاتل ديةً قوامها مائةٌ من الإبل أو ما يعادلها ، تسلّم إلى أهل المقتول ، إلّا أن يتصدّق أهل المقتول فيتنازلوا عن أخذ الدّية .

فإن كان المقتول خطأً مؤمناً ومن قومٍ مشركين أعداء للإسلام والمسلمين فعلى قاتل المؤمن خطأً تحرير رقبةٍ مؤمنة ولا دية عليه لأنّ دفع الدّية إلى الكافرين قوّةٌ للكافرين يستخدمونها ضدّ الإسلام والمسلمين .

وإن كان المقتول من قومٍ بين المؤمنين وبينهم ميثاقٌ وعهدٌ مؤكّد وهم أهل الذّمة فعلى القاتل ديةٌ مسلمةٌ إلى أهل القتيل وتحرير رقبةٍ مؤمنة . فمن لم يجد الرّقبة المؤمنة ولا اتّسع ماله لشرائها فعليه صيام شهرين متتابعين تخفيفاً من الله تعالى عن عباده بقبول الصّيام بدلاً عن الرّقبة .

إنّ الله سبحانه وتعالى عليمٌ لا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السّماء حكيمٌ في كلّ ما قدّر ودبّر وحكم .

ثبت في الصّحيحين عن ابن مسعود أنّ رسول الله ﷺ قال : لا يحلّ دم امرىءٍ مسلم يشهد أن لا إله إلّا الله وأنّي رسول الله إلّا بإحدى ثلاث : النّفس بالنّفس ، والثّيّب

---

(1) تفسير القرطبيّ ١٨٩٨ .
(2) تفسير القرطبيّ ١٨٩٨ .
(3) تفسير القرطبيّ ١٨٩٨ .
(4) تفسير الطّبريّ ١٣٦/٥ .

الزّاني ، والتّارك لدينه المفارق للجماعة . ثمّ إذا وقع شيءٌ من هذه الثّلاث فليس لأحدٍ من آحاد الرّعيّة أن يقتله وإنّما ذلك إلى الإمام أو نائبه[1] .

وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾

تبيّن الآية العذاب العظيم الذي أعدّه الله تعالى لمن قتل مؤمناً متعمّداً قتله « بحديدة كان القتل أو بحجر أو بعصا أو بغير ذلك ، وهذا قول الجمهور »[2] إنّ جزاءه يوم القيامة نار جهنّم التي يخلد فيها ، إضافةً إلى غضب الله تعالى عليه وعدم رضاه عنه ولعنه وإبعاده عن رحمته وطرده . هذا إلى العذاب العظيم الذي ينتظره .

ومذهب أهل السّنّة ، وهو الصّحيح ، إنّ من يقتل متعمّداً له توبة[3] .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾

سبب النّزول :

جاءت رواياتٌ عدّة في سبب النّزول نكتفي ببعضها . روى البخاريّ في صحيحه[4] عن ابن عبّاس رضي الله عنهما : ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السّلام لست مؤمناً . قال : كان رجلٌ في غُنَيْمَةٍ له فلحقه المسلمون ، فقال : السّلام عليكم ، فقتلوه وأخذوا غُنَيْمَته ، فأنزل الله في ذلك إلى قوله : عرض الحياة الدّنيا . تلك الغنيمة . وقال الإمام أحمد عن ابن عبّاس قال : مرّ رجلٌ من بني سليم بنفرٍ من أصحاب النّبيّ ﷺ يرعى غنماً له فسلّم عليهم

(١) تفسير ابن كثير ١/٥٣٤ .
(٢) تفسير القرطبيّ ١٨٩٩ .
(٣) تفسير القرطبيّ ١٩٠٣ .
(٤) ٦/٥٩ .

فقالوا : لا يسلّم علينا إلّا ليتعوّذ منّا ، فعمدوا إليه فقتلوه وأتوا بغنمه النّبيّ ﷺ فنزلت هذه الآية[1] وروى البخاريّ عن ابن عبّاس أنّ رسول الله ﷺ قال للمقداد : إذا كان رجلٌ مؤمن يخفي إيمانه مع قومٍ كفّار فأظهر إيمانه فقتلته فكذلك كنت تُخْفي إيمانك بمكّة من قبل[2] وعن السّدّيّ أنّ الآية الكريمة نزلت في أسامة بن زيد الذي قتل رجلاً من بني ضمرة رغم قول الرّجل : السّلام عليكم ، أشهد أنّ لا إله إلّا الله وأنّ محمّداً رسول الله . ولمّا بلغ النّبيّ ﷺ الخبر : « رفع رأسه إلى أسامة فقال : كيف أنت ولا إله إلّا الله . قال : يا رسول الله ، إنّما قالها متعوّذاً ، تعوّذ بها . فقال له رسول الله ﷺ : هلّا شققت عن قلبه فنظرت إليه »[3] فحلف أسامة ألّا يقاتل رجلاً يقول لا إله إلّا الله بعد ذلك الرّجل وما لقي من رسول الله ﷺ فيه[4] .

إذا ضربتم في سبيل الله : إذا سرتم مسيراً في جهاد أعدائكم[5] .

فتبيّنوا : فتأنّوا في قتل من أشكل عليكم أمره فلم تعلموا حقيقة إسلامه ولا كفرة[6] .

السّلام : السِّلْم ، بكسر السّين وسكون اللّام ، والسَّلَم ، بفتح السّين واللّام ، والسّلام : واحد[7] .

ابتغاء عرض الحياة الدّنيا : طلب متاع الحياة الدّنيا[8] .

فعند الله مغانم كثيرة : من رزقه وفواضل نعمه[9] .

كذلك كنتم من قبل : من قبل إعزاز الله دينه بتبّاعه وأنصاره تستخفون بدينكم[10] .

فمنّ الله عليكم : فتفضّل الله عليكم بإعزاز دينه بأنصاره وكثرة تبّاعه . وقد قيل : فمنّ الله عليكم بالتّوبة من قتلكم هذا الذي قتلتموه وأخذتم ماله بعد ما ألقى إليكم السّلام[11] .

فتبيّنوا : فلا تعجلوا بقتل من أردتم قتله ممّن التبس عليكم أمر إسلامه فلعلّ الله أن

---

(١) تفسير ابن كثير ١/٥٣٨ .
(٢) تفسير ابن كثير ١/٥٣٩ .
(٣) تفسير الطّبريّ ٥/١٤١ .
(٤) تفسير الطّبريّ ٥/١٤٢ .
(٥) تفسير الطّبريّ ٥/١٣٩ .
(٦) تفسير الطّبريّ ٥/١٣٩ .
(٧) صحيح البخاريّ ٦/٥٩ .
(٨) تفسير الطّبريّ ٥/١٤٠ .
(٩) تفسير الطّبريّ ٥/١٤٠ .
(١٠) تفسير الطّبريّ ٥/١٤٠ .
(١١) تفسير الطّبريّ ٥/١٤٠ .

يكون قد منّ عليه من الإسلام بمثل الذي منّ به عليكم وهداه لمثل الذي هداكم له من الإيمان(1) .

يا أيّها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله تعالى وانطلقتم في أرض الله تعالى مجاهدين في سبيله جلّ وعلا مقاتلين من أشرك مع الله تعالى غيره فتبيّنوا أمر من أشكل عليكم حاله ، أهو مسلمٌ أم كافر ، وتأنّوا في حال من التبس عليكم أمره فلا تعاجلوه بالقتل ولا تقولوا معلّلين قتلكم من ألقى إليكم السّلام بأن حيّاكم بتحيّة الإسلام أو أعلن الشّهادة : إنّك لست مؤمناً على الحقيقة لكن ادّعاءً بقصد أن يُعْصَمَ دمك ومالك وعرضك ؛ وكأنّكم شققتم عن قلبه ، وهذا ليس في مقدوركم ، بينما الباعث لكم على عدم التبيّن والتّثبّت في أمره والتّأنّي في قتله هو ابتغاؤكم عرض الحياة الدّنيا الزّائل المتمثّل في الغنيمة ، فعند الله سبحانه وتعالى ، حينما تتبيّنون ولا تقتلون إلّا من حلّ دمه ، مغانم كثيرةٌ في الدّنيا والآخرة ، في الدّنيا من المغانم التي يعدكم الله تعالى بها ومن عزّ الدّنيا ، وفي الآخرة من الحياة الطّيّبة التي هي امتدادٌ لحياة الدّنيا الطّيّبة ، وذلك في الجنّة التي فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر .

وتنبّه الآية الكريمة إلى ما يصحّ أن يكون قد نسيه بعض المؤمنين من حالٍ لهم في بلاد الشّرك مماثلةٍ لحال هؤلاء الذين أعلنوا إسلامهم وألقوا السّلم .

إنّكم أيّها المؤمنون لم تستطيعوا في مكّة قبل الهجرة مثلاً أن تعلنوا إسلامكم خوفاً من قومكم المشركين ، ولعلّ هؤلاء لم يستطيعوا أن يعلنوا إسلامهم للسّبب ذاته ، وحينما رأوكم أعلنوا إسلامهم ، فلماذا تصرفون الكلام عن وجهه فتظنون أنّ إعلانهم الإسلام تقيّةٌ وليس لأنّهم مسلمون . إن الله سبحانه وتعالى منّ عليكم أيّها المؤمنون فأعزّكم بعد ذلّ وآمنكم بعد خوف وها أنتم أولاء تعلنون على رءوس الأشهاد إسلامكم وتدعون إليه وتجاهدون في سبيل الله تعالى من كفر ، فهلّا تبيّنتم حقيقة من قتلتموه أهو مسلم أخٌ لكم في الإيمان أم كافر تفعلون به بعد التّثبّت ما تفعلون بأمثاله . ويلاحظ أنّ الآية الكريمة يتكرّر فيها القول : « فتبيّنوا » ممّا هو دليلٌ أكيد على القيمة الغالية لنفس المؤمن عند الله تعالى وينبغي أن تكون كذلك عند عباده جلّ وعلا .

وتقرّر الآية الكريمة في تذييلها أنّ الله سبحانه وتعالى خبيرٌ بما يعمل الخلائق فلا يخفى عليه شيءٌ من أعمالهم ونواياهم ، وسيجازي جلّ وعلا كلاً بعمله ونيّته ، إن خيراً فخير ، وإن شرّاً فشرّ .

---

(1) تفسير الطّبريّ ٥/١٤٠ .

﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ
فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ
وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ اللَّهُ
الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾

سبب النّزول :

روى البخاريّ في صحيحه[١] عن زيد بن ثابت أنّ رسول الله ﷺ أملى عليه : لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله ، فجاءه ابن أمّ مكتوم وهو يُمِلُّها عليّ ، فقال : يا رسول الله ، والله لو أستطيع الجهاد لجاهدت وكان أعمى ، فأنزل الله على رسوله ﷺ وفَخِذُه على فَخِذي فثَقُلَتْ عليّ حتّى خفتُ أن تَرُضَّ فَخِذي ثمّ سرّي عنه فأنزل الله : غَيْرَ أولي الضَّرر . وعن البراء قال : لمّا نزلت : لا يستوي القاعدون من المؤمنين ، قال النّبيّ ﷺ : ادعوا فلاناً ، فجاءه ومعه الدّواة واللَّوْح أو الكتف ، فقال : اكتب : لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله ، وخَلْفَ النّبيّ ﷺ ابنُ أمّ مكتوم ، فقال : يا رسول الله ، أنا ضرير ، فنزلت مكانها : لا يستوي القاعدون من المؤمنين غَيْرَ أولي الضَّرر والمجاهدون في سبيل الله[٢] وقد روى الحديث من وجه آخر عند الإمام أحمد عن زيد وفيه : « قال زيد ، فلا والله ما وجدت شيئاً قطّ أثقل من فخذ رسول الله ﷺ ثمّ سرّي عنه فقال : اكتب يا زيد ، فأخذت كتفاً فقال : اكتب : لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون . إلى قوله : عظيماً . فكتبت ذلك في كتف فقام حين سمعها ابن أمّ مكتوم وكان رجلاً أعمى فقال حين سمع فضيلة المجاهدين : يا رسول الله وكيف بمن لا يستطيع الجهاد ومن هو أعمى وأشباه ذلك ؟ قال زيد : فوالله ما قضى كلامه أو ما هو إلّا أن قضى كلامه ، غشيت النّبيّ ﷺ السّكينة فوقعت فخذه على فخذي فوجدت من ثقلها كما وجدت في المرّة الأولى ثمّ سرّي عنه فقال اقرأ فقرأت عليه : لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون . فقال النّبيّ ﷺ : غير أولي الضّرر . قال زيد :

---

(١) ٦/٦٠ .
(٢) صحيح البخاريّ ٦/٦٠ .

فألحقتها فوالله كأنّي أنظر إلى ملحقها عند صدع كان في الكتف[1] .

تبيّن الآية الكريمة فضل الجهاد في سبيل الله تعالى وفضل المجاهدين في سبيل الله تعالى بأموالهم وأنفسهم ، وتعذر أولي الضّرر لصدق نيّاتهم ، وتؤخّر القاعدين لغير عذر في المرتبة والأجر . إنّ الآية الكريمة تقرّر أنّه لا يستوي القاعدون من المؤمنين عن الجهاد في سبيل الله تعالى لغير عذرٍ والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، وتستثني الآية الكريمة أولي الضّرر لعمى أو زَمانة[2] وما إلى ذلك لتساوي الفريقين في النيّة الحسنة . وتجمع الآية الكريمة بين الجهاد بالمال والجهاد بالنّفس . إنّ الجهاد بالنّفس رغم أنّه أعظم جهاد ، إلا أنّه في بعض الأحايين لا يتحقّق أو لا يؤتي أكله دون بذل المال . ومن هنا كان الجمع بين المال والنّفس ، ومن هنا كان تقديم الجهاد بالمال على الجهاد بالنّفس .

فلننظر إلى المستويات الثّلاثة التي وضعت الآية الكريمة فيها الفئات الثّلاث هذه ، المجاهدين بالأموال والأنفس الذين صدقت نيّاتهم وأعمالهم ، أولي الضّرر الذين صدقت نيّاتهم ، غير أولي الضّرر الذين لم تصدق نيّاتهم وأعمالهم .

إن الله سبحانه وتعالى فضّل المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين من أولي الضّرر درجة . وهذه الدّرجة مقابل جهاد المؤمنين فعلاً بأموالهم وأنفسهم ، أمّا الفضل من الله المشترك بين الفريقين فلاشتراكهما في سلامة القصد وحسن النّيّة . ونستطيع أن نفهم أنّ أولي الضّرر إن كانوا من ذوي اليسار وبذلوا أموالهم وجاهدوا بها في سبيل الله تعالى يستطيعون بفضل الله تعالى أن يرتقوا إلى الدّرجة الأولى . أمّا الفضل من الله تعالى والوعد منه جلّ وعلا لكلٍّ من هذين الفريقين فهو الحُسْنى ، بمعنى الجنّة .

ويتبيّن مكان الفريق الثّالث المتأخّر منزلة تبعاً لتأخّر عمله وضعف همّته وإيمانه في قوله تعالى : ﴿ وفضّل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً ﴾ والمعنى : وفضّل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين دون عذرٍ أجراً عظيماً .

ثبت في صحيح البخاريّ عن أ نس بن مالك أنّ رسول الله ﷺ قال : إنّ بالمدينة أقواماً ما سرتم من مسير ولا قطعتم من واد إلّا وهم معكم فيه ، قالوا : وهم بالمدينة يا رسول الله ؟ قال : نعم حبسهم العذر . وهكذا رواه الإمام أحمد[3] .

---

(١) تفسير ابن كثير ٥٤٠/١ .

(٢) الزَّمانة : نقص بعض الأعضاء .

(٣) تفسير ابن كثير ٥٤١/١ .

﴿دَرَجَٰتٖ مِّنۡهُ وَمَغۡفِرَةٗ وَرَحۡمَةٗۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا ٩٦﴾

بيّنت الآية الكريمة السّابقة أنّ الله سبحانه وتعالى وعد كلاً من المجاهدين والقاعدين من أولي الضّرر بالحسنى وهي الجنّة . والمعروف أنّ الجنّة إلى أعلى درجات ، وأنّ النّار إلى أسفل دركات ، وهذه الآية الكريمة التي نحن بصددها تبيّن درجات الجنّة التي أعدّها الله سبحانه وتعالى للمجاهدين ولمن صدقت نيّته وعجز عن الجهاد . ويردف الفضل من الله تعالى الممثّل في درجات الجنّة بالمغفرة من الله تعالى للذّنوب ، وبالرّحمة التي تشملهم والتي يكون الخلائق أشدّ الأوقات حاجةً إليها .

وتقرّر الآية الكريمة أنّ الله سبحانه وتعالى دائماً وأبداً هو الغفور الرّحيم .

ثبت في الصّحيحين عن أبي سعيدٍ الخدريّ أنّ رسول الله ﷺ قال : إنّ في الجنّة مائة درجةٍ أعدّها الله للمجاهدين في سبيله ، ما بين كلّ درجتين كما بين السّماء والأرض [1]

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ٩٧﴾

سبب النّزول :

روى البخاري عن ابن عبّاس أنّ ناساً من المسلمين كانوا مع المشركين يكثّرون سواد المشركين على عهد رسول الله ﷺ يأتي السّهم فيُرْمى به فيصيب أحَدَهُمْ فيَقْتُله أو يُضْرَبُ فيُقْتَلُ ، فأنزل الله : إنّ الذين توفّاهم الملائكة ظالمي أنفسهم ... الآية[2] .

إنّ الذين توفّاهم الملائكة : تقبض أرواحهم الملائكة[3] .

ظالمي أنفسهم : أي بترك الهجرة[4] .

قالوا فيم كنتم : في أيّ شيءٍ كنتم من دينكم[5] .

---

(١) تفسير ابن كثير ١/٥٤١ .
(٢) صحيح البخاريّ ٦/٦١ .
(٣) تفسير الطّبريّ ٥/١٤٧ .
(٤) تفسير ابن كثير ١/٥٤٢ .
(٥) تفسير الطّبريّ ٥/١٤٧ .

تتحدّث الآية الكريمة عن الذين لا يستطيعون أن يمارسوا تعاليم الإسلام بحرّية في بلاد المشركين ولديهم الاستطاعة كي يهاجروا إلى بلاد الإسلام فراراً بدينهم ومع ذلك لا يفعلون . إنّ الآية الكريمة تقرّر أنّ أولئك الذيت تتوفّاهم الملائكة ظالمي أنفسهم بالبقاء في بلاد الكفر التي يحال فيها بينهم وبين ممارسة تعاليم الإسلام تسألهم الملائكة في أسلوب التّوبيخ والتّقريع والتّأنيب : في أيّ شيءٍ كنتم من دينكم ، ولماذا لم تفرّوا إلى بلاد الله تعالى كي تمارسوا تعاليم الإسلام بحرّية تامّة ؟ وكان جواب هؤلاء الظّالمي أنفسهم : كنّا مُسْتَضْعَفِين في الأرض لا حول لنا ولا قوّة ، ولا طاقة لنا ولا قبل بالمشركين أعداء الله تعالى وأعدائنا وقد أوصلوا إلينا كلّ أذى وحالوا بيننا وبين أن نطبّق تعاليم الإسلام . وتردّ عليهم الملائكة قائلة : ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها وتفعلوا ما فعل المهاجرون إخوانكم الذين تركوا ديارهم وأموالهم ؟ ولمّا كانت أرض الله تعالى واسعةً وكان أولئك مقصّرين في جنب الله تعالى وفي حقّ دين الإسلام فقد استحقّوا أنّ تكون نار جهنّم الحامية مأواهم وساءت مصيراً ومقاماً ومستقرّاً .

﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾

تستثني أولى الآيتين الكريمتين المستضعفين من الرّجال والنّساء والولدان الذين لا يستطيعون حيلةً كي يفرّوا بدينهم ولا يهتدون سبيلاً ، لعدم معرفتهم الطّريق واهتدائهم إلى السّبيل لو كانوا يستطيعون حيلة . إنّ أولئك المستضعفين ، لعلّ الله سبحانه وتعالى أن يعفو عنهم للعذر الذي هم فيه وهم مؤمنون(١) وعسى من الله تعالى موجبة(٢) وكان الله عفوّاً ولم يزل غفوراً ، رأفةً بعباده ورحمةً بهم ، وبخاصّة المستضعفون منهم .

عن ابن عبّاس : كنت أنا وأمّي من المستضعفين من النّساء والولدان(٣) .

وروى البخاريّ عن ابن عبّاس : إلّا المستضعفين ، قال : كنت أنا وأمّي ممّن عذر الله عزّ وجلّ(٤) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : بينا النّبيّ ﷺ يصلّي العشاء إذ قال : سمع الله لمن حمده . ثمّ قال قبل أن يسجد : اللّهمّ نجّ عيّاش بن أبي ربيعة ، اللّهمّ نجّ

---

(١) تفسير الطّبريّ ١٤٨/٥ .
(٢) تفسير ابن كثير ٥٤٢/١ .
(٣) تفسير ابن كثير ٥٤٢/١ .
(٤) تفسير ابن كثير ٥٤٢/١ وانظر صحيح البخاريّ ٦١/٦ .

سَلَمَة بن هشام ، اللّهمّ نجّ الوليد بن الوليد ، اللّهمّ نجّ المستضعفين من المؤمنين ، اللّهمّ اشدد وطأتك على مُضَر ، اللّهمّ اجعلها سنين كسني يوسف(١) .

﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٠٠) ﴾

سبب النّزول :

ذكر أنّ الآية نزلت بسبب بعض من كان مقيماً بمكّة وهو مسلم فخرج لمّا بلغه أنّ الله أنزل الآيتين قبلها وذلك قوله : إنّ الذين توفّاهم الملائكة ظالمي أنفسهم إلى قوله : وكان الله عفوّاً غفوراً . فمات في طريقه قبل بلوغه المدينة(٢) .

مراغماً كثيراً : المراغم مصدر قولهم : راغم فلانٌ مراغماً ومراغمةً(٣) وهو ذو علاقةٍ بالرّغام ، بفتح الرّاء ، بمعنى التّراب الرّقيق ، وبقولهم : رَغِم أنفُ فلانٍ رغْماً إذا وقع في الرّغام ، وأرغمه غَيْرُه ، ويعبّر بذلك عن السّخط كقول الشّاعر :

إذا رَغِمَتْ تلك الأنوفُ لَمْ ارْضِها ولم أَطْلُبِ العُتْبَى ولكن أزيدُها

فمقابلته بالإرضاء ممّا ينبّه دلالته على الإسخاط ، وعلى هذا قيل : أرغم الله أنفه ، وأَرْغَمَهُ أسخطه ، وراغمه ساخطه وتجاهدا على أن يُرْغم أحدهما الآخر ، ثمّ تستعار المراغمة للمنازعة(٤) والمراغم للمضطرب في البلاد والمذهب(٥) قال الله تعالى : يجد في الأرض مراغماً كثيراً ، أي مذهباً يذهب إليه إذا رأى منكراً يلزمه أن يغضب منه كقولك : غضبت إلى فلانٍ من كذا ورغمت إليه(٦) .

تتحدّث الآية الكريمة عن الفضل الذي يعد الله تعالى به المهاجر في سبيله في الدّنيا والآخرة . إنّ الآية الكريمة تقرّر أنّ من يهاجر في سبيل الله تعالى ويترك وطنه الذي حال فيه المشركون بينه وبين أن يمارس بحرّيّةٍ مطلقة تعاليم الإسلام رغبةً في جوار المؤمنين والتّحوّل من ديار الكفر إلى ديار المؤمنين فإن الله سبحانه وتعالى يعد المهاجر ، ووعده الحقّ ، بأنه

---

(١) صحيح البخاريّ ٦/٦١ .
(٢) تفسير الطّبريّ ٥/١٥١ .
(٣) تفسير الطّبريّ ٥/١٥١ .
(٤) مفردات الرّاغب ص ١٩٩ .
(٥) تفسير الطّبريّ ٥/١٥١ .
(٦) مفردات الرّاغب ص ١٩٩ .

سوف يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة ، يجد في بلاد الله تعالى الواسعة الكثير من المذاهب والسّبل والطّرق التي يسلكها فراراً بدينه ، مغاضباً أهل الشّرك ، مخاصماً أهل الكفر ، واضعاً في الرّغام أنوف الكفّار الذين ضيّقوا عليه الخناق وسدّوا المنافذ وأغلقوا السّبل ، وها هو ذا ربّ العزّة ينجز وعده ، وها هي ذي السُّبل ، رغماً عن الكافرين ، ميسّرة ، والمنافذ سالكة ، والمذاهب متعدّدة . وتوّج فضل الله تعالى على المهاجر بالسّعة في كلّ شيءٍ بعد تذليل السُّبل وتيسيرها . وها هو ذا المهاجر يمارس بحرّيّةٍ مطلقة تعاليم الإسلام ، ويا لها من سعةٍ معنويّة تسرح فيها النّفس المؤمنة وتمرح ابتهاجاً بتوفيق الله تعالى في إقامة شعائر الدّين ، وهذه السّعة المعنويّة تقترن بها سعاتٌ أخرى مكملة لها ومتمّمة لبهجتها ، ومنها السّعة في المكان بعد ضيقه قبل الهجرة ، والسّعة في الرّزق بعد تقتيره ، والسّعة في دائرة المحبّة في الإيمان وقد استبدلت الوجوه الهاشّة الباشّة المشرقة المؤمنة ، بتلك الوجوه التي عليها غبرة ، والتي ترهقها وتغشاها قترة وظلمةٌ وسواد ، وجوه أولئك الكفرة الفجرة .

وإن كان هذا الفضل مرتبطاً بالحياة الأولى غالباً ، وهي حياةٌ طيّبة بفضل الله تعالى ومنّه ، فإنّ ثمّةَ حياةً أخرى طيّبة تنتظر ذلك المهاجر الذي يخرج من بيته ووطنه مهاجراً إلى الله ورسوله ثمّ يدركه الموت في طريق الهجرة وقبل أن يصل إلى مهاجَره . إنّ أجر هذا المهاجر قد وقع على الله سبحانه وتعالى وثبت عنده جلّ وعلا . إنّ هذا الأجر لا يعلمه إلّا الله تعالى .

وبما أنّ هذا المهاجر يصحّ أن يكون قد صدر منه لمم الذّنوب أو سواها ، فإنّ الآية الكريمة تنصّ على مغفرة الله تعالى الذّنوب ، وتثبت له جلّ وعلا الرّحمة المطلقة التي وسعت كلّ شيء . وها هي ذي رحمة البرّ الرّحيم تشمل المهاجر في سبيله جلّ وعلا والذي اخترمته المنيّة في طريق الهجرة . إنّ الذّنب بإذن الله تعالى وفضله مغفور ، وإنّ السّعي بفضل الله تعالى ورحمته مشكور .

إنّ المهاجر ، وصل إلى مهاجره أم اخترمه الموت في الطّريق ، يتقلّب في فضل الله تعالى العميم ورحمته الواسعة جلّ وعلا . فهنيئاً للمهاجرين في سبيل الله تعالى هنيئاً .

وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾

وإذا ضربتم في الأرض : سافرتم فيها[١] . .

مشهور مذهب مالك وجلّ أصحابه وأكثر العلماء من السّلف والخلف أنّ القصر سنّة ، وهو قول الشّافعيّ[٢] وقال الشّافعيّ : القصر في غير الخوف بالسّنّة ، وأمّا في الخوف مع السّفر فبالقرآن والسّنّة ، ومن صلّى أربعاً فلا شيء عليه ، ولا أحبّ لأحدٍ أن يتمّ في السّفر رغبةً عن السّنّة[٣] واختلف العلماء في حدّ المسافة التي تقصر فيها الصّلاة[٤] واختلفوا في نوع السّفر الذي تقصر فيه الصّلاة ، فأجمع النّاس على الجهاد والحجّ والعمرة وما ضارعها من صلة رحم وإحياء نفس . واختلفوا فيما سوى ذلك . فالجمهور على جواز القصر في السّفر المباح كالتّجارة ونحوها[٥] والجمهور من العلماء على أنّه لا قصر في سفر المعصية كالباغي وقاطع الطّريق وما في معناهما[٦] وروى مسلمٌ عن عروة عن عائشة قالت : فرض الله الصّلاة حين فرضها ركعتين ، ثمّ أتمّها في الحضر ، وأقرّت صلاة السّفر على الفريضة الأولى[٧] وفي صحيح مسلم عن ابن عبّاس قال : فرض الله الصّلاة على لسان نبيّكم ﷺ في الحَضَر أربعاً وفي السّفر ركعتين وفي الخوف ركعة[٨] .

تبيّن الآية الكريمة في مخاطبتها المؤمنين بأنّهم إذا ضربوا في الأرض وأوغلوا في السّفر في سبيل الله تعالى وابتغاء مرضاته جلّ وعلا فليس عليهم جناحٌ ولا إثمٌ أن يقصروا من الصّلاة إن خاف المؤمنون أن يفتنهم الذين كفروا . وبشأن القول : « إن خفتم » خرج الكلام على الغالب ، إذ كان الغالب على المسلمين الخوف في الأسفار ، ولهذا قال يَعْلَى بن أميّة لعمر : ما لنا نقصر وقد أمنّا ؟ فقال عمر : عجبتُ ممّا عجبتَ منه فسألت رسول الله ﷺ عن ذلك فقال : صدقةٌ تصدّق الله بها عليكم فأقبلوا صدقته[٩] ولو لم يُضْرَب في الأرض ولم يوجد السّفر بل جاءنا الكفّار وغَزَوْنا في بلادنا فتجوز صلاة الخوف[١٠] ومعنى إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا : إن خشيتم أن يفتنكم الذين كفروا في صلاتكم . وفتنهم

---

(١) تفسير القرطبيّ ١٩٢١ .
(٢) تفسير القرطبيّ ١٩٢٢ .
(٣) تفسير القرطبيّ ١٩٢٢ .
(٤) تفسير القرطبيّ ١٩٢٣ .
(٥) تفسير القرطبيّ ١٩٢٥ .
(٦) تفسير القرطبيّ ١٩٢٦ .
(٧) تفسير القرطبيّ ١٩٢٨ .
(٨) تفسير القرطبيّ ١٩٣٠ .
(٩) تفسير القرطبيّ ١٩٣١ .
(١٠) تفسير القرطبيّ ١٩٣١ .

إيّاهم فيها حملهم عليهم وهم فيها ساجدون حتّى يقتلوهم أو يأسروهم فيمنعوهم من إقامتها وأدائها ويحولوا بينهم وبين عباده الله وإخلاص العبادة له[1] وقد عرفنا أنّ قصر الصّلاة في غير الخوف ثابتٌ بالسّنّة .

تقرّر الآية الكريمة أنّ الكافرين أعداء للمؤمنين بيّنو العداوة لهم .

وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا (١٠٢)

مناسبة الآية الكريمة :

الآيات الكريمات السّابقات في الجهاد وفي الهجرة ، ويرتبط بكلٍّ منهما الضّرب في الأرض والسّير عليها ، وهذه الآية الكريمة في صلاةٍ ذات علاقةٍ بالجهاد في سبيل الله تعالى ، ألا وهي صلاة الخوف ، وهذه الصّلاة ذات علاقةٍ بالقصر ، وقد تحدّثت الآية الكريمة السّابقة عن قصر الصّلاة في الخوف .

سبب النّزول :

روى الدّارَقطنيّ عن أبي عيّاشٍ الزّرقيّ قال : كنّا مع رسول الله ﷺ بِعُسْفان ، فاستقبلنا المشركون عليهم خالد بن الوليد وهم بيننا وبين القبلة ، فصلّى بنا النّبيّ ﷺ

(١) تفسير الطّبريّ ١٥٤/٥ .

الظّهر فقالوا : قد كانوا على حالٍ لو أصبنا غِرّتهم ، قال : ثمّ قالوا : تأتي الآن عليهم صلاةٌ هي أحبّ إليهم من أبنائهم وأنفسهم قال : فنزل جبريل عليه السّلام بهذه الآية بين الظّهر والعصر : ﴿ وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصّلاة ﴾[1] .

تبيّن الآية الكريمة منزلة الصّلاة عماد الدّين في الإسلام ، فهي لا تسقط بأيّ عذرٍ من الأعذار ، ولكن فيها رُخَصٌ وتيسيرٌ من الله تعالى على عباده ، ومن ذلك صلاة الخوف .

تخاطب الآية الكريمة المصطفى ﷺ ، والخطاب بعد ذلك يتّجه إلى كلّ الأئمّة ، بأنّه عليه الصّلاة والسّلام إذا كان في جيشه وحان وقت الصّلاة وأقامها عليه الصّلاة والسّلام فإنّ على طائفةٍ من الجيش أن تقوم معك للصّلاة أيّها الرّسول الكريم ولتأخذ هذه الطّائفة أسلحتها فإنّه أرهب للعدوّ ، فإذا سجدت هذه الطّائفة معك في صلاتها فلتكن الطّائفة الأخرى حارسةً لكم من ورائكم ، ولتأت الطّائفة الأخرى الحارسة والتي لم تصلّ فلتصلّ معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم . ويلاحظ بشأن الطّائفة الأولى الأمر بحمل السّلاح فقط لأنّها متّجهة في صلاتها إلى بارئها مقبلةٌ عليه جلّ وعلا ، وبشأن الطّائفة الأخرى الأمر بأخذ الحذر وبأخذ السّلاح . وإنّما أضيف بشأن هذه الطّائفة إلى حمل السّلاح أخذ الحذر ، لأنّ الأعداء الذين يريدون أن يباغتوا المصلّين الخاشعين في صلاتهم إنّما يحول بينهم وبين تحقيق أمنيّتهم الطّائفة الأخرى الحارسة فهم يتربّصون غفلتهم وعدم حذرهم . وبما أنّ صلاة الخوف أنواع ، وقد صلّاها النّبيّ ﷺ في أيّامٍ مختلفة وأشكالٍ متباينة يتوخّى فيها كلّها ما هو أحوط للصّلاة وأبلغ للحراسة[2] فإنّا نودّ أن نشير إلى كيفيتين للصّلاة حينما يستقبل وجه العدوّ القبلة وهي الصّلاة المذكورة في الآية الكريمة ، وحينما يستقبل المؤمنون القبلة . روى مالك في الموطّأ عن سهل بن أبي حثمة أنّ صلاة الخوف أن يقوم الإمام ومعه طائفةٌ من أصحابه وطائفةٌ مواجهة العدوّ ، فيركع الإمام ركعة ويسجد بالذين معه ثمّ يقوم ، فإذا استوى قائماً ثبت ، وأتمّوا لأنفسهم الرّكعة الباقية ثمّ يسلّمون وينصرفون والإمام قائم ، فيكونون وجاه العدوّ ، ثمّ يقبل الآخرون الذين لم يصلّوا فيكبّرون وراء الإمام فيركع بهم الرّكعة ويتشهّد ثمّ يسلّم ، فيقومون ويركعون لأنفسهم .

(١) تفسير القرطبيّ ١٩٣٤ .

(٢) تفسير القرطبيّ ١٩٣٩ .

الرّكعة الباقية ثمّ يسلّمون[1] قال ابن عمر : فإذا كان خوفٌ أكثر من ذلك صلّى راكباً أو قائماً يومىء إيماءً ، أخرجه البخاريّ ومسلم ومالك وغيرهم[2] وبشأن الكيفيّة الأخرى للصّلاة يقول القرطبيّ[3] : « وهذه الصّلاة المذكورة في القرآن إنّما يُحتاج إليها والمسلمون مستدبرون القبلة ووجه العدوّ القبلة ، وإنّما اتّفق هذا بذات الرِّقاع ، فأمّا بِعُسْفان والموضع الآخر فالمسلمون كانوا في قُبالة القبلة . وما ذكرناه من سبب النّزول في قصّة خالد بن الوليد لا يلائم تفريق القوم إلى طائفتين ، فإنّ في الحديث بعد قوله : فأقمت لهم الصّلاة ، قال : فحضرت الصّلاة فأمرهم النّبيّ ﷺ أن يأخذوا السّلاح ، وصفّنا خلفه صفّين ، قال : ثمّ ركع فركعنا جميعاً ، قال : ثمّ رفع فرفعنا جميعاً ، قال : ثمّ سجد النّبيّ ﷺ بالصّفّ الذي يليه ، قال : والآخرون قيامٌ يحرسونهم ، فلمّا سجدوا وقاموا جلس الآخرون فسجدوا مكانهم ، قال : ثمّ تقدّم هؤلاء في مصافّ هؤلاء وجاء هؤلاء إلى مصافّ هؤلاء ، قال : ثمّ ركع فركعوا جميعاً ، ثمّ رفع فرفعوا جميعاً ، ثمّ سجد النّبيّ ﷺ والصّفّ الذي يليه ، والآخرون قيام يحرسونهم . فلمّا جلس الآخرون سجدوا ثمّ سلّم عليهم . قال : فصلّاها رسول الله ﷺ مرّتين ، مرّةً بعُسْفان ، ومرّةً في أرض بني سليم » .

والجمهور في صلاة المغرب أن يصلّي الإمام بالطّائفة الأولى ركعتين وبالطّائفة الثّانية ركعة . هذا قول مالك وأبي حنيفة لأنّه أحفظ لهيئة الصّلاة ، والمعنى أنّ هذه الكيفيّة أحفظ لصلاة المغرب الثّلاثيّة من حيث الشّكل ، وقال الشّافعيّ : يصلّي بالأولى ركعة ، لأنّ عليًّا رضي الله عنه فعلها ليلة الهرير في صفّين[4] .

وتقرّر الآية الكريمة أنّ الذين كفروا يودّون دائماً وأبداً ويتمنّون لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلةً واحدة ، ويندفعون إليكم اندفاعةً سريعةً خاطفة . ويلاحظ ذكر السّلاح والمتاع هنا أمّا السّلاح فأنّه عدّة المحارب ، وأمّا المتاع فلأنّه بعد السّلاح عماد الغنيمة التي يحرص عليها أعداؤكم .

وتسامح الآية الكريمة في وضع السّلاح إن كان بالمؤمنين أذىً من مطرٍ أو كانوا مرضى . ويلاحظ ذكر الأذى من المطر بسبب ما يرتبط به من البلل وصدأ الحديد ،

---

(1) تفسير القرطبيّ ١٩٣٦ .

(2) تفسير القرطبيّ ١٩٣٦ وجاء ص ١٩٣٩ قال في الموطّأ : مستقبل القبلة وغير مستقبلها .

(3) تفسير القرطبيّ ١٩٣٨ .

(4) تفسير القرطبيّ ١٩٣٩ .

ويلاحظ عدم ذكر الأذى مع المرض لأنّ المرض نوعٌ من الابتلاء وتمحيص الذّنوب وثواب من صبر عليه كبير .

ولا تسامح الآية الكريمة في الحذر بحالٍ من الأحوال . فعلى الرّغم من السّماح بوضع السّلاح للضّرورة فإنّ أخذ منتهى الحذر والحيطة واجب : « فإنّ الجيش ما جاءه مصابٌ قطّ إلّا من تفريط في حذر »[1] .

ووراء العذاب الذي جعله الله تعالى للكافرين بأيدي المؤمنين تقرّر الآية الكريمة أنّ الله سبحانه وتعالى أعدّ للكافرين عذاباً مهيناً ، وصفة الهوان تشمل كلّ صفات العذاب الأخرى من عظم وألم ودوام والعياذ بالله .

﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴾ (١٠٣)

فإذا اطمأننتم : فإذا أمنتم وذهب الخوف وحصلت الطّمأنينة[2] .

فأقيموا الصّلاة : فأتمّوها وأقيموها كما أمرتم بحدودها وخشوعها وركوعها وسجودها وجميع شئونها[3] .

كتاباً موقوتاً : فرضاً وقّت لهم وقت وجوب أدائه فبيّن ذلك لهم[4] .

تجلّى فضل الله سبحانه وتعالى على المؤمنين في إرادته جلّ وعلا لهم اليسر لا العسر ومن ذلك ما يتعلّق بالصّلاة عماد الدّين وأهمّ أركان الإسلام بعد الشّهادتين بقصر صلاة الخوف والسّفر ، هذا إلى مظاهر اليُسْر التي تجلّت حقًّا في كيفيات صلاة الخوف كما أدّاها المصطفى ﷺ . إنّ أداء الصّلاة دائماً في حال الخوف والأمن ، السّفر والحضر دليلٌ على أهمّيّة الصّلاة . وفي الوقت الذي يتجلّى فيه تخفيف الله تعالى عن عباده بشأن الصّلاة ، صلاة الخوف بخاصّة ، يتجلّى اهتمام الشّارع الحكيم بذكر الله تعالى ، تعبيراً عن الشّكر لله تعالى والثّناء عليه . ويلاحظ نصّ الشّارع الحكيم في ذلك الظّرف العصيب على ذكر الله تعالى في كلّ الأحوال من قيام وقعود واضطجاع . ولهذا النّصّ دلالتان ، الأولى أهمّيّة الذّكر

(١) تفسير القرطبيّ ١٩٤٣ .
(٢) تفسير ابن كثير ١/٥٥٠ .
(٣) تفسير ابن كثير ١/٥٥٠ .
(٤) تفسير الطّبريّ ٥/١٦٨ .

والأخرى سهولة الذّكر ولأجل هذا أمر الشّارع الحكيم به في كلّ الأحوال ، كما أمر به في غير هذا الموضع أن يكون ذكراً كثيراً ، أي في كلّ الأزمان .

وتنصّ الآية الكريمة على الأحوال الثّلاث البارزة من أحوال الإنسان القيام والقعود والاضطجاع . ويلاحظ في هذا التّرتيب وفي التّعبير مظهرٌ من مظاهر إعجاز القرآن الكريم . تبدأ الآية الكريمة بالقيام باعتباره أوضح حالات الإنسان وأكثرها قدرة في الدّلالة على إيجابيّته خاصّةً وأننا إثر صلاة الخوف وفي ميدان القتال . وتتحوّل الآية الكريمة إلى القعود . ونودّ أن نقف عند هذه اللّفظة من جهتين ظاهرة وخفيّة . أمّا الجهة الظّاهرة فهي كون القعود حالاً تتوسّط القيام وعلى جَنْب . وأمّا الجهة الخفيّة فهي أنّ حال القعود امتدادٌ للقيام واستمرارٌ له ، ليس من زاوية كونه أقرب إلى القيام من الاضطجاع فحسب ، بل لأنّ القعود ذاته إنّما يكون عن قيام وبعد قيام بأن يكون اتّجاه القاعد من أعلى إلى أسفل ، من القيام إلى القعود ، وذلك بعكس الجلوس مثلاً الذي هو امتدادٌ للاضطجاع واستمرارٌ له بأن يكون اتّجاه الجالس من أسفل إلى أعلى ، من الاضطجاع إلى الجلوس . وبهذا يتبيّن أنّ القعود والجلوس في الحقيقة شيءٌ واحدٌ ، وإنّما يختلفان في الاتّجاه من أعلى في حالة القعود ، ومن أسفل في حالة الجلوس . وبهذا يتبيّن الدّور العظيم الذي تقوم به لفظة القعود في الآية الكريمة ، والتي تُسْلِمُ هي بدورها إلى الاضطجاع وتؤدّي إليه باعتباره الاتّجاه واحداً من القيام إلى القعود إلى الاضطجاع . إنّ من كان على جنبه في حال الصّحّة أو المرض مطلوبٌ منه أن يذكر الله تعالى ذكراً كثيراً فكيف بغير هذه الحال من الأحوال .

فإذا اطمأنّ المسلمون وزال الخوف ونصرهم الله تعالى على عدوّه وعدوّهم فإنّ عليهم أن يقيموا الصّلاة ويؤدّوها كاملةً بكلّ هيئاتها وأركانها وواجباتها وشروطها لأنّها عماد الدّين .

وإنّما كان الاهتمام بالصّلاة في كلّ الأحوال ، من سفرٍ وحضر ، خوفٍ وأمن ، مرضٍ وصحّة لأنّ الصّلاة كانت وما زالت وستظلّ على المؤمنين كتاباً موقوتاً ، فريضةً وقّت الله سبحانه وتعالى للمؤمنين وجوب أدائها فعليهم أن يمتثلوا لأوامر الله تعالى وأن يؤدّوا الصّلاة أداءً كاملاً وصحيحاً .

﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾﴾

الإسلام هو دين العزّة والكرامة ، دين الجهاد في سبيل الله تعالى ، دين القتال من أجل أن تكون كلمة الله تعالى هي العليا ، وكلمة الذين كفروا السُّفلى . ومع ما يرتبط بالجهاد من قتلٍ وجرحٍ وأسرٍ فإنّ كلَّ ذلك رخيصٌ وهيّن في سبيل مرضاة الله تعالى وما أعدّ الله سبحانه وتعالى من ثوابٍ في الآخرة وعزٍّ وتمكين في الأولى . والمعروف أنّ الحروب بطبيعتها لا تدوم وهذا معناه أنّ كلّ ما يرتبط بها من تضحيات لا يقاس بما يترتّب عليها من شهادةٍ في سبيل الله تعالى ومن نصر . وهذه الآية الكريمة تحثّ المسلمين على الجهاد في سبيل الله تعالى مع ما يرتبط بذلك من خوف تجسّد في صلاة الخوف التي تجلّى فيها فضله تعالى على هذه الأمّة . والآية الكريمة تنهي المسلمين لله ربّ العالمين عن أن يضعفوا أمام الكفّار ، ويتقاعسوا عن التّصدّي لهم ، ويجبنوا عن ملاحقتهم ، ويتكاسلوا عن متابعتهم . وتعقد الآية الكريمة مقارنةً بين حال المؤمنين وحال المشركين فيتبيّن أنّ الله تعالى مولى الذين آمنوا وأنّ الكافرين لا مولى لهم . إنّ في القتال إيلاماً بالقتل والجرح لكلٍّ من الفريقين ، وينفرد المسلمون لله تعالى بأنّهم يرجون من فضل الله تعالى بالجهاد في سبيله ما لا يرجو الكافرون الذين يقاتلون في سبيل الطّاغوت وفي سبيل الشّيطان الرّجيم . وما أكثر الآيات الكريمات والأحاديث النّبويّة الشّريفة في فضل الجهاد في سبيل الله تعالى وفي ثواب المجاهدين . إنّ مثل هذا التّنبيه إلى فضل الله تعالى على المؤمنين كفيلٌ بحثّهم على بذل النّفس والنّفيس في سبيل مرضاة الله تعالى بالجهاد في سبيله جلّ وعلا . وتقرّر الآية الكريمة في تذييلها أنّ الله سبحانه وتعالى عليمٌ لا يخفى عليه شيءٌ ومن ذلك حقيقة الباعث للكافرين على القتال حكيمٌ في كلّ ما يقدّره ويقضيه من أحوال وأحكام .

أنزلنا إليك الكتاب للحكم به
وتبيين فضلنا عليك
وثواب المؤمنين وعذاب المشركين

الآيات : ١٠٥ - ١٢٢

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ١٠٥﴾

سبب النّزول :

جاء في سبب النّزول ، بشأن هذه الآية الكريمة والآيات الكريمات التّاليات وحتّى تمام الآية السّادسة عشرة بعد المائة تقريباً وفي مسألةٍ واحدةٍ متشعّبة ذات حلقات ، أنّ رجلاً من الأنصار يقال له طعمة بن أبيرق أحد بني ظفر بن الحارث سرق درعاً من جارٍ له يقال له قتادة بن النّعمان ، وكانت الدّرع في جرابٍ فيه دقيق ، فجعل الدّقيق ينتثر من خرقٍ في الجراب حتّى انتهى إلى الدّار وفيها أثر الدّقيق ، ثمّ خبأها عند رجلٍ من اليهود يقال له زيد ابن السّمين فالتمست الدّرع عند طعمة فلم توجد عنده وحلف لهم : والله ما أخذها وما له بها من علم . فقال أصحاب الدّرع : بلى والله قد أدلج علينا فأخذها وطلبنا أثره حتّى دخل داره فرأينا أثر الدّقيق . فلمّا أن حُلِّف تركوه واتّبعوا أثر الدّقيق حتّى انتهوا إلى منزل اليهوديّ فأخذوه فقال : دفعها إليّ طعمة بن أبيرق وشهد له أناسٌ من اليهود على ذلك ، فقالت بنو ظفر وهم قوم طعمة : انطلقوا بنا إلى رسول الله ﷺ فكلّموه في ذلك فسألوه أن يجادل صاحبهم وقالوا : إن لم تفعل هلك صاحبنا وافتضح وبرىء اليهوديّ فهمّ رسول الله ﷺ أن يفعل فنزلت الآيات الكريمات . وتقول بعض الرّوايات إنّ اسمه بشير وإنّ القرآن الكريم لمّا نزل لحق بالمشركين فأنزل الله فيه : ومن يشاقق الرّسول من بعد ما تبيّن له الهدى ويتّبع غير سبيل المؤمنين إلى قوله : ومن يشرك بالله فقد ضلّ ضلالاً بعيداً[1] .

خصيماً : مخاصماً عنهم[2] .

تخاطب الآية الكريمة المصطفى ﷺ وتبيّن أنّ ربّ العزّة أنزل عليه ﷺ الكتاب العزيز والقرآن المجيد بالحقّ ، من أجل أن يحكم عليه الصّلاة والسّلام بين النّاس بالحقّ الذي أراه الله تعالى إيّاه ، فالقرآن الكريم أنزله جلّ وعلا بالحقّ وبالحقّ نزل هذا الكتاب العزيز . وتنهى الآية الكريمة المصطفى ﷺ عن أن يخاصم عن الخائنين ويدافع عن الذين لا أمانة

---

(١) انظر هنا أسباب النّزول للنّيسابوريّ ص ١٢٠ . وتفسير الطّبريّ ١٦٩/٥ – ١٧٣ وتفسير ابن كثير ٥٥٠/١ – ٥٥٢ .

(٢) الجلالين .

لهم . إنّ ممّا أرى الله سبحانه وتعالى حبيبه المصطفى ﷺ خيانة ابن أبيرق ، وإنّما همّ ﷺ أن يجادل عن ابن أبيرق اعتقاداً منه أوّل الأمر أنّه بريء وحينما تبيّنت بالوحي خيانته نال ما يستحقّ من جزاء ، وفي المقابل تثبت براءة المتّهم .

﴿ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ ﴾

الخطاب وإن كان متّجهاً أساساً إلى المصطفى ﷺ فالمقصود أمّته عليه الصّلاة والسّلام ، والمعروف أنّ الله سبحانه وتعالى قد غفر له عليه الصّلاة والسّلام ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر ، قال تعالى[1] : ﴿ إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً . ليغفر لك الله ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر ويتمّ نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً . ويَنْصُرَك الله نصراً عزيزاً ﴾ وحينما يؤمر المصطفى ﷺ بأن يستغفر الله ، فذلك معناه أنّ الأمر متّجه بالأَوْلى والأحرى إلى كلّ فردٍ من أفراد الأمّة المسلمة لله ربّ العالمين . وهذا درسٌ قرآنيّ بليغ في اليقظة وعدم الغفلة والحذر ، لأنّ كلّ فردٍ منّا لا يعلم هل يتقبّل الله تعالى أعماله الصّالحة بفضله أم لا يتقبّلها بعدله جلّ وعلا فلا يقبل تعالى من الأعمال إلّا الصّالحة الموافقة للشّرع الحكيم الخالصة التي أريد بها وجهه الكريم . وإذا كان هذا هو حال الأعمال الصّالحة فكيف بالذّنوب التي لا يكاد يسلم منها إنسانٌ واحد غير معصوم . وقد قال عزّ من قائل في حَذَرِ هذا الفريق من المؤمنين في سورة المؤمنون[2] : ﴿ والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلةٌ أنّهم إلى ربّهم راجعون ﴾ إنّ قلوب المؤمنين خائفةٌ ألّا يتقبّل الله تعالى أعمالها الصّالحة .

وتقرّر الآية الكريمة أنّ الله سبحانه وتعالى دائماً وأبداً الغفور الرّحيم . يغفر الذّنب ويقبل التّوب وتشمل رحمته كلّ خلقه جلّ وعلا .

﴿ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ ﴾

لا تجادل يا محمّد ولا تخاصم عن الذين يختانون أنفسهم قبل أن يخونوا غيرهم ، لأنّ وبال خيانتهم عليهم على نحو ما فعل بنو أبيرق ، فإنّ كلّ نفسٍ لها ما كسبت من خيرٍ وعليها ما اكتسبت من شرّ ، وقد اكتسب أولئك الذين خوّنوا أنفسهم وزراً ، فعليهم أن

---

(١) سورة الفتح ١ – ٣ .
(٢) الآية ٦٠ .

ينالوا جزاءهم . وتقرّر الآية الكريمة أنّ الله سبحانه وتعالى لا يحب من كان خائناً كثير الخيانة عديم الأمانة جريئاً على ارتكاب الذّنوب والخطايا . وحينما لا يحبّ الله تعالى عبداً لا يرضى عنه ولا يسدّد خُطاه بل يزيده عمى بصيرةٍ إلى عماه ضلالاً إلى ضلاله . واللّطيف في الأمر أنّ الآية الكريمة تنصّ على الخوّان أي الكثير الخيانة ، وكأنّ في العدول عن لفظ الخائن تنبيهاً للخائن الذي زلّت به النّعل مرّةً بأنّ عليه أن يعود فوراً إلى بارئه غافر الذّنب وقابل التّوب وإلّا كان العقاب شديداً والعذاب أليماً إن استمرأ الخيانة وتحوّل خوّاناً أثيماً لا يتوب إلى الله تعالى ولا يستغفره جلّ وعلا .

يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾

الحديث متّجه أساساً إلى بني أبيرق الذين يستخفون من النّاس ويستترون من عباد الله تعالى الذي لا يملكون لهم شيئاً ولا يستخفون من الله تعالى ولا يستترون لأنّهم لا يستطيعون ذلك ، ولا يستحيون من الله تعالى الذي يعلم ما توسوس به أنفسهم فكيف بما يقولون أو يفعلون ، ولا يخافون الله سبحانه وتعالى إذ يبيّتون ما لا يرضى جلّ وعلا من القول ، وإذ يزوّرون ليلاً سيّىء القول الذي يريدون إذاعته بعد ذلك ، وإذ يصلحون ليلاً ويزوّقون الكلام الذي لا يرضى الله تعالى عنه بل يغضب من اتّهامٍ لأبرياء بالخيانة ومن تبرئةٍ لأنفسهم ، وهم الخونة ، ممّا حام حولهم من شُبه ودنا منهم من تهم ولصق بهم من خيانة ، بل إنّهم ليحلفون بالله تعالى كذباً وعمداً وعن سبق إصرار بأنّ الأبرياء هم الخونة وبأنّهم وهم الخونة أبرياء .

وتقرّر الآية الكريمة أن الله سبحانه وتعالى محيطٌ بما يعملون ، ولا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السّماء ومن ذلك ما يبيّت بنو أبيرق ويزوّرون ليلاً من قولٍ لا يرضى الله تعالى عنه وما يتّفقون في الخفاء بينهم من كلامٍ منمّق محبّر .

والآية الكريمة وراء ذلك تنسحب على كلّ من يضمر في الخفاء سوءاً في القصد أو القول أو الفعل . إنّ ما أضمر إذا كان يغيب عن عباد الله تعالى فإنّه لا يغيب عن ربّ العباد الذي يجازي كلاًّ بناءً على نيّته وعمله إن خيراً فخير وإن شرًّا فشرّ .

﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾﴾

المقصودون هنا أساساً قوم طُعْمة الذين جادلوا عن طعمة بن أبيرق وذويه بالباطل . والآية الكريمة تقول للقوم : ها أنتم يا هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدّنيا وخاصمتم عنهم في دار العمل بالباطل ، فمن يجادل عنهم يوم القيامة ومن يخاصمه جلّ وعلا فيهم في ذلك اليوم المجموع له النّاس المشهود الذي فيه الملك لله تعالى الواحد القهّار ؟ إنّ الجواب على هذا الاستفهام الإنكاريّ معروف . لا أحد يجادل عنهم يوم القيامة حينما يقفون بين يدي أحكم الحاكمين لفصل الخطاب . ويردف الاستفهام الإنكاريّ بآخر : أم من يكون عليهم وكيلاً ؟ من هذا الذي سيكون وكيلاً لبني أبيرق وقومه وسواهم يتوكّل لهم في خصومة وقد فضحهم الله تعالى على رءوس الأشهاد وأخزاهم وشهدت عليهم جلودهم وأرجلهم وتكلّمت أيديهم ؟ لا أحد .

إنّ هذا درسٌ بليغٌ للمسلمين بأن يكونوا على بيّنة فيما يدلون به من شهادات ويعلنونه من أقوال في حقّ الآخرين لأنّهم يوم القيامة محاسبون على كلّ صغيرةٍ أو كبيرةٍ تصدر منهم من قولٍ أو فعل .

﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾

تقرّر الآية الكريمة أنّ من يعمل سوءاً ويرتكب ذنباً يسوء به غيره كما فعل ابن أبيرق أو يظلم نفسه بارتكاب ذنبٍ قاصرٍ عليه وحده ثمّ يستغفر الله تعالى يجد الله سبحانه وتعالى غفوراً رحيماً ، يستر ذنبه ويغفر له وتشمله رحمته جلّ وعلا بقبول توبته ، وربّما انتهى الفضل منه تعالى إذا شاء أن يبدّل سيّئات المذنب حسنات ، فلا حدّ لفضله جلّ وعلا .

روي عن أبي بكرٍ رضي الله عنه أنّه قال : قال رسول الله ﷺ : ما من مسلم يذنب ذنباً ثمّ يصلّي ركعتين ثمّ يستغفر الله لذلك الذّنب إلّا غفر له[١] .

---

(١) تفسير ابن كثير ٥٥٣/١ .

﴿ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (١١١)

ومن يكسب إثماً ، والكسب ههنا خسارةٌ في الحقيقة ، ويرتكب ذنباً عالماً به قاصداً إليه فإنّما يكسبه على نفسه لأنّ ضرره عائدٌ إليه وحده ولا يمتدّ إلى سواه ، وبذلك تأخذ الآية الكريمة بسببٍ من مثل قوله عزّ من قائل[١] : ﴿ ولا تزر وازرةٌ وزر أخرى ﴾ ومع أنّ معنى الآية الكريمة عامّ ، فالعبرة كما هو معلومٌ بعموم اللّفظ لا بخصوص السّبب ، فإنّها في حقّ قوم طُعْمة كأنّها تقول لهم : إنّكم بمجادلتكم بالباطل عن بني أبيرق تتحوّلون أطرافاً في العمليّة غير الكريمة التي قاموا بها ، بينما أنتم بريئون أساساً ولا يعنيكم في قليلٍ أو كثيرٍ ما كسبوه من إثم فلا تزر نفسٌ وازرةٌ وزر أخرى ولا تحمل نفسٌ ذنب نفسٍ أخرى .

وتقرّر الآية الكريمة أنّ الله سبحانه عليمٌ لا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السّماء ومن ذلك ما ارتكب طعمة في جنح الظّلام مثلاً ، حكيم في كلّ صنعٍ وتدبير ، ومن ذلك أنّ من يكسب إثماً فإنّما يكسبه على نفسه .

﴿ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ (١١٢)

ومن يكسب خطيئةً ويرتكب ذنباً صغيراً ، قصداً أو عن غير قصد ، أو يرتكب ذنباً كبيراً عمداً ، ثمّ يرم به شخصاً بريئاً متنصّلاً منه متخلّصاً من تبعاته فقد احتمل بهتاناً ، وتحمّل فريةً وكذباً ، وجاء ظلماً وزوراً ، وارتكب إثماً مبيناً ، وأتى ذنباً عظيماً . ويستوي في ذلك ابن أبيرق وغيره .

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ (١١٣)

الآية الكريمة في تبيين فضل الله تعالى العظيم على المصطفى ﷺ ، وقد نصّت في نهايتها على ذلك . والآية الكريمة تقرّر أنّه لولا فضل الله تعالى على الرّسول الكريم ، وفي

---

(١) سورة فاطر ١٨ .

مقدّمة هذا الفضل ما أكرمه به جلّ وعلا من نعمة الرّسالة والوحي ، ولولا رحمة الله تعالى بالرّسول الكريم ، وفي مقدّمة ذلك عصمة الله تعالى له وتسديده ، رعايته له وتأييده ، ومن ذلك الإيحاء له بحقيقة كلٍّ من البريء والخائن ، وقد كان عليه الصّلاة والسّلام – بتعاونِ قوم طعمة على الإثم والعدوان – قد كاد عليه الصّلاة والسّلام يبرّىء الخائن ، وفي مقابلِ ذلك إلصاق التّهمة بالبريء ، لولا فضل الله تعالى عليك أيّها الرّسول الكريم لهمّت طائفةٌ منهم أن يضلّوك ويزلّوك عن الصّراط المستقيم وينحرفوا بك عن جادّة الصّواب ، خبثاً منهم وسوء طويّة ، مكراً منهم ودهاءً ، والحقيقة أنّهم لا يضلّونك أيّها الرّسول الكريم البشر الذي يصحّ عليك ، لولا عصمة الله تعالى لك ، ما يصحّ على البشر ، إنّما يضلّون أنفسهم لأنّهم يتعاونون على الإثم والعدوان ، ويعلمون أنّهم يتعاونون على ذلك ، ويعلمون الذّنب العظيم الذي يرتكبونه والعذاب الأليم الذي ينتظرهم .

وهم وراء ذلك لا يضرّونك أيّها الرّسول الكريم لأنّك بشر وتحكم بما أراك الله تعالى معتمداً فيما تعتمد على الشّهادة ، ووراء ذلك فالله سبحانه يعصمك دائماً وأبداً ، ومن ثمّ فإنّ القوم إنّما يضرّون أنفسهم ، لأنّ عاقبة ما يرتكبون من خطايا وآثام وشهادة زورٍ وبهتان عائدةٌ عليهم ، فالضّرر منصرفٌ عن الرّسول الكريم إليهم ، والآية الكريمة تنفي عن الرّسول الكريم أدنى ضررٍ يلحق به وأقلّ سوءٍ يصل إليه ، لأنّ عين الله تعالى تكلؤه .

وإضافةً إلى النّصّ في أوّل الآية الكريمة على فضل الله تعالى على الرّسول الكريم ورحمته ، فإنّ ثمّة نصًّا على عددٍ من كبريات نعم الله تعالى على المصطفى ﷺ ، وآخر هذه النّعم ذو علاقةٍ بالطّريقة التي يعصم الله تعالى بها رسوله الكريم من الزّلل والخطل ﴿ وعلّمك ما لم تكن تعلم ﴾ .

وتنصّ الآية الكريمة على نعمة إنزال القرآن الكريم عليه ﷺ والإيحاء به إليه ، وعلى نعمة الإيحاء بالحكمة وهي السّنّة النّبويّة المطهّرة . إنّ القرآن الكريم موحىً بلفظه ، وإنّ السّنّة النّبويّة المطهّرة موحىً بها في الجملة بالمعنى . يلي ذلك النّصّ على تعليم الله تعالى المصطفى ﷺ ، ويلاحظ أنّ هذه النّعمة الثّالثة تشترك مع النّعمتين السّابقتين في كون مصدرها الوحي ، هذا إلى اشتراك النّعمتين السّابقتين ، القرآن والسّنّة ، مع النّعمة الثّالثة ، من حيث كون النّعم الثّلاث يجمعها أنّ المصطفى ﷺ لا علم له بأيٍّ من القرآن والسّنّة والغيب لولا فضل الله تعالى عليه بالإيحاء إليه .

إنّ كلاً من النّعم المذكورة في الآية الكريمة دليلٌ على كبير فضل الله تعالى عليه ﷺ ، وهي رمزٌ لما سواها من نعم عظمى وفضلٍ كبير ، وإلى هذه الحقيقة وإلى التّنبيه إلى

القيام بواجب الشكر عليها وعلى كل نعمةٍ وفضل تختم الآية الكريمة بتقرير ذلك الفضل الكبير : ﴿ وكان فضل الله عليك عظيماً ﴾ .

وحينما ينبّه عليه الصّلاة والسّلام إلى فضل الله تعالى العظيم عليه وما يقترن بذلك ضمناً من وجوب القيام بشكر المنعم ، فإنّ في ذلك تنبيهاً ضمْنيًّا ودرساً بليغاً للأُمّة الإسلامية التي لها في الرّسول الكريم أسوةٌ حسنة وقدوةٌ طيّبة . إنّ عليهم أن يقدروا نعم الله تعالى حقّ قدرها وأن يقوموا بواجب شكر الله تعالى عليها ومن مظاهر ذلك الشّكر التّعاون على البرّ والتّقوى .

۞ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَـٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾

تقرّر الآية الكريمة أنّه لا خير في كثيرٍ من نجوى النّاس ومن ذلك نجوى قوم طعمة ، وحينما لا يكون ثمّة خيرٌ فذلك مظنّة وجود الشرّ . وتستثني الآية الكريمة أولئك الذين يتناجون ويتحدّثون فيما بينهم آمرين بصدقةٍ في سبيل الله تعالى توزّع على أربابها ، أو آمر بمعروفٍ وهو ما أمر الله تعالى به وندب إليه من صالحات ، وحينما يأمرون بالمعروف ينهون عن المنكر ضمناً ، أو آمرين بإصلاحٍ بين النّاس من أجل رأب الصّدع ولمّ الشّمل وجمع الكلمة وتأليف القلوب .

وبالإضافة إلى إشارة الآية الكريمة إلى مجموعةٍ من الأعمال الصّالحة التي حثّ على القيام بها الشّارع الحكيم هي تشير إلى الشّرط الذي يتوقّف عليه قبول الله تعالى تلك الأعمال الصّالحة فضلاً منه جلّ وعلا، أو عدم قبول الله تعالى تلك الأعمال الصّالحة عدلاً منه جلّ وعلا . أمّا هذه الشّرط الذي يتوقّف عليه قبول الله تعالى تلك الأعمال فهو أنّ القيام بتلك الأعمال الصّالحة يجب أن يكون ابتغاء مرضاة الله تعالى وحده لا شريك له . إنّ الآية الكريمة تقرّر أنّ من يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله تعالى فسوف يؤتيه جلّ وعلا أجراً عظيماً . والله سبحانه وتعالى هو الذي يعلم حقيقة ذلك الأجر العظيم .

عن أمّ حبيبة قالت : قال رسول الله ﷺ : كلام ابن آدم كلّه عليه لا له ، إلّا ذكر الله عزّ وجل ، أو أمر بمعروف ، أو نهيٌ عن منكر[1] وروى الإمام أحمد وأبو داود

(١) تفسير ابن كثير ١/٥٥٤ .

والترمذيّ أنّ رسول الله ﷺ قال : ألا أخبركم بأفضل من درجة الصّيام والصّلاة والصّدقة ، قالوا بلى يا رسول الله . قال : إصلاح ذات البين . قال : وفساد ذات البين هي الحالقة[1]
وعن أنس أنّ النّبيّ ﷺ قال لأبي أيّوب : ألا أدلّك على تجارة ؟ قال : بلى يا رسول الله . قال : تسعى في إصلاح بين النّاس إذا تفاسدوا وتقارب بينهم إذا تباعدوا[2] .

﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾

ومن يشاقق الرّسول : الشّين والقاف أصلٌ واحدٌ صحيح يدلّ عل انصداعٍ في الشّيء ، ثمّ يحمل عليه ويشتقّ منه على معنى الاستعارة . تقول : شققت الشّيء أشقّه شقًّا إذا صدعته[3] . ومن الباب الشّقاق ، بمعنى المخالفة وكونك في شِقٍّ غير شِقّ صاحبك أو من شقّ العصا بينك وبينه[4] وذلك إذا انصدعت الجماعة وتفرّقت . يقال : شقّوا عصا المسلمين ، وقد انشقّت عصا القوم بعد التئامها ، إذا تفرّق أمرهم[5] نولّه ما تولّى : نجعل ناصره ما استنصره واستعان به من الأوثان والأصنام وهي لا تغنيه ولا تدفع عنه من عذاب الله شيئاً ولا تنفعه[6] .

ونصله جهنّم : نحرقه بها[7] .

مصيراً موضعاً يصير إليه من صار إليه[8] .

نزلت هذه الآية في الخائنين الذين ذكرهم الله في قوله : ولا تكن للخائنين خصيماً ، لمّا أبى التّوبة من أبي منهم وهو طعمة بن الأبيرق ولحق بالمشركين من عبدة الأوثان بمكّة مرتدّاً مفارقاً لرسول الله ﷺ ودينه[9] .

تقرّر الآية الكريمة أنّ من يشاقق الرّسول ويخالف المصطفى ﷺ ويكون هو شقّ وناحيةٍ غير شقّ الرّسول وناحيته ، من بعد ما تبيّن له الهدى ، واستنار له طريق الحقّ ، ومن يتبع غير سبيل المؤمنين وطريقاً غير طريقهم عن عمدٍ وسابق إصرار ، نولّه ما تولّي ، ونجعل وليّه وناصره ما استنصره واستعان به من أصنامٍ وأوثانٍ لا تنفع ولا تضرّ نفسها فضلاً عن

(١) تفسير ابن كثير ١/٥٥٤ .
(٢) تفسير ابن كثير ١/٥٥٤ .
(٣) معجم مقاييس اللّغة « شقّ » ٣/١٧٠
(٤) مفردات الرّاغب ص ٢٦٤ .
(٥) معجم مقاييس اللّغة ٣/١٧ .
(٦) تفسير الطّبريّ ٥/١٧٨ .
(٧) تفسير الطّبريّ ٥/١٧٨ .
(٨) تفسير الطّبريّ ٥/١٧٨ .
(٩) تفسير الطّبريّ ٥/١٧٨ .

غيرها ، في الدّنيا والآخرة ، وفي يوم القيامة يجد ذلك الكافر أو المرتدّ نفسه وقد صَلِيَ بالنّار واحترق في جهنّم ، وساءت نار جهنّم مكاناً يصار إليه ومأوىً يلجأ إليه .

ومع أنّ الآية الكريمة نزلت في طعمة فالعبرة كما هو معروفٌ بعموم اللّفظ لا بخصوص السّبب .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ (١١٦)

الآية الكريمة ذات وجه شبهٍ كبيرٍ بالآية الكريمة الثّامنة والأربعين في هذه السّورة الكريمة . قال تعالى : ﴿ إنّ الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء . ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً ﴾ . وما قيل بشأن الآية الكريمة السّابقة من كون العبرة بعموم اللّفظ لا بخصوص السّبب يقال هنا . فمع أنّ المقصود في المقام الأوّل طعمة بن الأبيرق فإنّها تنسحبُ على كلّ مشركٍ ومرتدّ . إنّ الآية الكريمة بالنّظر إليها من زاوية طعمة يصحّ أن يكون معناها على النّحو التّالي : إنّ الله سبحانه وتعالى لا يغفر أن يشرك به ، فلن يغفر جلّ وعلا لطعمة لو مات على إشراكه مع الله تعالى سواه ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، ومن ذلك طعمة الذي خان الأمانة لو مات غير مشرك . إنّ العفو عن طعمة أو عذابه في مشيئة الله تعالى بشأن خيانته ومعصيته ، فإن شاء جلّ وعلا عفا وإن شاء عذّب . إنّ الشّرك هو الذّنب الوحيد الذي لا يغفره الله تعالى ويغفر ما دون الشّرك لمن يشاء . يستوي في ذلك طعمة وسواه .

وتقرّر الآية الكريمة أنّ من يشرك مع الله تعالى غيره فقد ضلّ ضلالاً بعيداً ، وانصرفَ عن الصّراط المستقيم انصرافاً بيّنا لأنّه باختصار لم يتّبع الهدى وسبيل المؤمنين ، إنّما اتّبع الشّيطان الرّجيم فقاده إلى مهاوي الرّدى والعياذ بالله .

﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴾ (١١٧)

مريداً : متمرّداً على الله في خلافه فيما أمره به وفيما نهاه عنه[1] .

ارتدّ طعمة بن الأبيرق عن الإسلام ولحق بالمشركين . وقد بيّنت الآية الكريمة السّابقة أنّ الله سبحانه وتعالى لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء . وهذه الآية

(١) تفسير الطّبريّ ٥/١٨٠ .

الكريمة تتحدّث عن مشركي مكّة الذين لحق بهم طعمة فتقرّر أنّهـم ما يدعـون من دون الله سبحانه وتعالى ولا يعبدون إلّا إناثاً وما يدعون إلّا شيطاناً مريداً يضلّهم ويعدهم ويمنّيهم . أمّا كون ما يدعون إناثاً فلأنّهم يعبدون الأصنام التي خلعوا عليها أسماء الإناث كاللّات والعزّى ومناة وإساف ونائلة[1] وعليه فإنّ هؤلاء المشركين أضافوا إلى ارتكابهم الذّنب الـذي لا يغفره الله تعالى تناقضاً في السّلوك واضطراباً في الآراء . إنّهـم على سبيـل المثـال يحبّون الذّكـور ويزعمـون وراء ذلك أنّ الملائكـة إنـاث وأنّهـم بنـات الله تعـالى ﴿كبرت كلمـــةً تخرج من أفواههم إن يقولون إلّا كذباً ﴾[2] وإلى هذا التّناقض أشار مثل قوله تعـالى[3] : ﴿ ويجعلـون لله البنـات سبحانـه ولهم ما يشتهون . وإذا بشّر أحدهـم بالأنثى ظلّ وجهـه مسودّاً وهـــو كظيم . يتـوارى من القـوم من سوء ما بُشّر به أيُمْسِكُـه على هونٍ أم يدسّه في التـراب ، ألا ساء ما يحكمون ﴾ وقوله تعالى[4] : ﴿ ويجعلون لله ما يكرهـون وتصف ألسنتهم الكـذب أنّ لهم الحُسْنى . لا جرم إنّ لهم النّار وأنّهم مُفْرطون ﴾ .

إنّ هؤلاء الذين يحبّون الذّكور ويشتهونهم لأنفسهـم ولهم الموقـف المعـروف من الأنثـى على نحو ما بيّن القرآن الكريم في العديد من المواضع ما يدعون إلّا هذه الآلهة التـي لها أسماء إناث ، وبهذا هم أضافوا إلى الشّرك تناقضاً في الأقوال والأفعال . وحـينما يدعـو هؤلاء القـوم الأصنام هم إنّما يدعون الشّيطان المريد ، ويتّبعون إبليس اللّعين الـذي كان من الجنّ ففسق على أمر ربّه وتمرّد على الله تعالى في خلافه جلّ وعلا فيما أمره به وفيما نهاه عنه .

إنّ لسان الآية الكريمة يقول : إنّ العبادة لا تكـون إلّا لله تعـالى وإنّ واجب الإنسان أن يعصي الشّيطان اللّعين شديد العداوة للإنسان .

لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾

بيّنت الآية الكريمة أنّ المشركين ما يدعون إلّا الشّيطان المريد الذي تمادى في معصيـة الله تعالى ، والذي قد لعنه الله تعالى وطرده وأبعده من رحمته بعد أن عصى الله تعـالى ورفض السّجود لأمره عزّ وجلّ بالسّجود لآدم عليه السّلام سجود تحيّة وتكرمة وتعهّد بأن يستـأصل بالشّرور والآثام ذرّيّـة آدم عليـه السّلام إلّا عبـاد الله تعـالى المخلصين . وهـذه الآية الكـريمة تشير إلى مدى وقاحـة اللّعين فبعـد أن عصى الله تعـالى واستحـقّ اللّعـن تعهّـد بأن يختصّ

---

(١) انظر تفسير الطّبريّ ٥/١٧٩ ، ١٨٠ .
(٢) سورة الكهف ٥ .
(٣) سورة النّحل ٥٧ – ٥٩ .
(٤) سورة النّحل ٦٢ .

لنفسه من ذرّيّة آدم عليه السّلام نصيباً مفروضاً وحظًّا معلوماً وقدراً معيّناً عيّنه اللّعين المطرود من رحمة الله تعالى في مثل هذه الآية الكريمة وفي مثل قوله تعالى[1] : ﴿ قال أرأيتك هذا الذي كرّمت عليّ لئن أخّرتن إلى يوم القيامة لأحتنكنّ ذرّيّته إلّا قليلاً ﴾ أي لأستأصلنّهم بالشّرور التي أغريهم بها والآثام التي أزيّنها لهم باستثناء القليل منهم . وفي مثل قوله تعالى[2] : ﴿ قال ربّ بما أغويتني لأزيننّ لهم في الأرض ولأغوينّهم أجمعين . إلّا عبادك منهم المخلصين ﴾ وفي مثل قوله تعالى[3] : ﴿ قال فبما أغويتني لأقعدنّ لهم صراطك المستقيم . ثمّ لآتينّهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين » إلى غير ذلك من آياتٍ كريمات .

وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ
وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ
فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا
مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾

فليبتّكنّ آذان الأنعام : فليقطّعنّ آذان الأنعام[4] عن قتادة قال : البتك في البحيرة والسّائبة . كانوا يبتكون آذانها لطواغيتهم[5] والبتك : القطع . وهو في هذا الموضع قطع أذن البحيرة ليعلم أنّها بحيرة . وإنّما أراد بذلك الخبيث أنّه يدعوهم إلى البحيرة فيستجيبون له ويعملون بها طاعةً له[6] .

فليغيّرنّ خلق الله : فليغيّرن دين الله تعالى[7] ويلحق بذلك كلّ ما غيّروا في دين الله تعالى ومن ذلك الوشم[8] ومن ذلك خصاء البهائم[9] وما إلى ذلك من تغيير خلق الله تعالى مخالفةً لدين الله تعالى وأمره .

أشارت الآية الكريمة السّابقة إلى أنّ اللّعين تكفّل بأن يتّخذ لنفسه من ذرّيّة آدم

---

(١) سورة الإسراء ٦٢ .
(٢) سورة الحجر ٣٩ ، ٤٠ .
(٣) سورة الأعراف ١٦ ، ١٧ .
(٤) تفسير الطّبريّ ٥/١٨٠ .
(٥) تفسير الطّبريّ ٥/١٨١ .
(٦) تفسير الطّبريّ ٥/١٨٠ .
(٧) تفسير الطّبريّ ٥/١٨٢ .
(٨) تفسير الطّبريّ ٥/١٨٢ .
(٩) تفسير الطّبريّ ٥/١٨١ .

عليه السّلام نصيباً معلوما . وتستمرّ هذه الآية الكريمة التّالية في سرد ما تكفّل به اللّعين بعد ذلك . ولا نزال مع اللّام التي تفيد القسم والنّون التي تفيد التّوكيد دليلاً على العزم والتّصميم . إنّ اللّعين يتعهّد بأن يضلّ بني آدم عن الصّراط المستقيم ويزيّن لهم طريق الكفر والفسوق والعصيان المبين . كما يتعهّد بأن يكيل لهم الأماني جزافاً ، فليس ثمّة بعثٌ ولا نشور ولا حساب ولا ثواب ولا عقاب ولا جنّة ولا نار ، وفي مقابل النّفي لكلّ هذه الحقائق إثباتٌ لكلّ زيف وباطل فهذه الحياة الدّنيا نهاية المطاف فينبغي إذن أن تكون غاية المنى .

ومن مظاهر كيل الأماني جزافاً أنّ الشّيطان الرّجيم يزيّن لمرتكبي الآثام أعمالهم السّيّئة ويمنّيهم بأنّهم سينجون من العقوبة فلا قطع ليد من سرق لأنّه سيفرّ بسرقته وسينجو بعضوه ، وكذلك من زنى ومن قتل ومن ارتشى . وحينما يجدّ الجدّ يجري على لسان اللّعين ما أشارت إليه الآية الكريمة من سورة إبراهيم[1] قال تعالى : ﴿ وقال الشّيطان لمّا قضي الأمر إنّ الله وعدكم وعد الحقّ ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطانٍ إلّا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ، ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخيّ ، إنّي كفرت بما أشركتمون من قبل . إنّ الظّالمين لهم عذابٌ أليم ﴾ .

ومن مظاهر إغواء اللّعين أنّه يأمر حزبه بأن يقطّعوا آذان الأنعام : « قال قتادة والسّدّيّ وغيرهما : يعني تشقيقها وجعلها سمة وعلامةً للبحيرة والسّائبة والوصيلة »[2] والبحيرة التي يمنع درّها للطّواغيت فلا يحلبها أحد من النّاس ، والسّائبة التي كانوا يسيبونها لآلهتهم فلا يحمل عليها شيء . والوصيلة النّاقة البكر في أوّل نتاج الإبل بأنثى ثمّ تثنّي بعد بأنثى . وكانوا يسيبونها لطواغيتهم إن وصلت إحداهما بأخرى ليس بينهما ذكر[3] وهذه الأعمال كلّها بإيحاءٍ من الشّيطان الرّجيم وقد قال تعالى[4] : ﴿ ما جعل الله بَحيرة ولا سائبةٍ ولا وصيلةٍ ولا حامٍ ولكنّ الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون ﴾ .

ومن مظاهر إغواء اللّعين أنّه يأمر حزبه بأن يغيّروا خلق الله ، أي دينه جلّ وعلا ، وقد جاء في سورة الرّوم[5] قوله تعالى : ﴿ فأقم وجهك للدّين حنيفاً . فطرة الله التي فطر النّاس عليها ، لا تبديل لخلق الله . ذلك الدّين القيّم ولكنّ أكثر النّاس لا يعلمون ﴾

---

(١) الآية ٢٢ .
(٢) تفسير ابن كثير ٥٥٦/١ .
(٣) نقلاً عن حديث البخاري عن سعيد بن المسيب .
(٤) سورة المائدة ١٠٣ .
(٥) الآية ٣٠ .

ويدخل في تغيير خلق الله تعالى بمعنى دينه كلّ ما نهى الله تعالى عنه . في صحيح مسلم النّهي عن الوشم في الوجه ، وفي لفظ : لعن الله من فعل ذلك . وفي الصّحيح عن ابن مسعود أنّه قال : لعن الله الواشمات[1] والمستوشمات والنّامصات والمتنمّصات والمتفلّجات للحسن المغيّرات خلق الله عزّ وجلّ[2] وبشأن كون الدّين هو فطرة الله تعالى وهو خلق الله تعالى كما أشارت آية سورة الرّوم السّابقة إليك هذا الحديث الثّابت في الصّحيحين : عن أبي هريرة قال . قال رسول الله ﷺ : كلّ مولودٍ يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه ، كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء هل تجدون بها من جدعاء . وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمّاد قال : قال رسول الله ﷺ : قال الله عزّ وجلّ : إنّي خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشّياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحرّمت عليهم ما أحللت لهم[3] .

وتقرّر الآية الكريمة أنّ من يتّخذ الشّيطان وليًّا من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً ، لأنّ نتيجة الضّلال الخسران ، فعلى عباد الله تعالى أن يعصوا الشّيطان الرّجيم وأن يعودوا إلى الله تعالى وأن يعبدوه جلّ وعلا وحده لا شريك له .

يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾
أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾

غروراً : باطلاً[4] .

محيصاً : معدلاً يعدلون إليه . يقال منه : حاص فلانٌ عن هذا الأمر يحيص حيصاً وحيوصاً إذا عدل عنه[5] .

إنّ من وسائل خداع اللّعين أولياءه أنّه يَعِدُهم ، فلا حدّ لوعوده المعسولة التي لا أوّل لها ولا آخر ، ويمنّيهم ، فلا نهاية لما يمنّي به حزبه من تحقّق الأماني والآمال التي يزيّنها

---

(١) الوشم كالوعد : غرز الإبرة في البدن وذرّ النّيلج عليه واستوشم : طلبه . والنّمْص نتفُ الشّعر ، ولُعِنَت النّامصة وهي مزيّنة النّساء بالنّمْص والمتنمّصة وهي المزيّنة به والنّمَص محركة : رِقّة الشّعَر ودقّته حتّى تراه كالزّغب . والفلج بالتّحريك : تباعد ما بين الأسنان . القاموس .

(٢) تفسير ابن كثير ١/٥٥٦ .

(٣) تفسير ابن كثير ١/٥٥٦ .

(٤) تفسير الطّبريّ ٥/١٨٣ .

(٥) تفسير الطّبريّ ٥/١٨٤ .

لهم ويوهمهم بسهولة تحقّقها بارتكاب كلّ محظور وسلوك كلّ شططٍ من السُّبل واحتضان كلّ خطلٍ من الرّأي . وتقرّر الآية الكريمة أنّ كلّ وعود اللّعين المعسولة باطلة وكاذبة . ولا يريد اللّعين بها سوى استدراج حزبه إلى مصيدته ومكيدته .

ويلاحظ أنّ الآية الكريمة تجمع بين الوعد والأمنيّة ، والمعروف أنّ الوعد إنّما يستعمل بشأن ما يسهل تحقيقه ويمكن حدوثه . أمّا وقد انطلت على الحزب الوعود المعسولة التي لا أوّل ولا آخر ، فليتحوّل اللّعين إلى شيءٍ أبعد ألا وهي الأماني التي هي أقرب إلى كونها بعيدة المنال في نفس المتمنّي . إنّ الشّيطان اللّعين يتّخذ ممّا يصحّ تحقيقه من الوعود مطيّةً إلى ما يصعب تحقيقه أو يستحيل . وما الذي يمنع اللّعين من تقديم الوعود والأماني ما دام أولياؤه مطيعين له ، يأتمرون بأمره وينتهون بنهيه .

وما جزاء الذين ألقوا مقاليدهم إلى الشّيطان الرّجيم ؟ لقد بيّنت الآية الكريمة الثّانية أنّ مأوى أولياء الشّيطان الرّجيم جهنّم ونارها المحرقة التي لا يجد عنها أولياء الشّيطان محيصاً ولا معدلاً ، ولا يستطيعون لها اجتناباً ولا تحاشياً .

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾

ومن أصدق من الله قيلاً : لا أحد أصدق من الله قولاً[١] .

بعد أن تحدّثت الآيات الكريمات السّابقات عن وعود الشّيطان الرّجيم المعسولة الكاذبة ، وما أعدّ الله سبحانه وتعالى لأولياء الشّيطان وأعداء الرّحمن من نار جهنّم وعذاب الحريق ، يتمّ التّحوّل كعادة القرآن الكريم المتشابه المثاني إلى الحديث عن الفريق المقابل فريق المؤمنين وما أعدّ الله تعالى لهم في جنّات النّعيم . إنّ الذين آمنوا وعملوا الصّالحات سيدخلهم ربّهم ، بسبب إيمانهم وتقديمهم الدّليل على الإيمان بالعمل الصّالح ، جنّاتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً . إنّ هذا وعدٌ من الله تعالى لعباده المؤمنين ، والآية الكريمة تشير إلى هذا الوعد من الله تعالى وتقرّر أنّه حقّ : ﴿ وعد الله حقًّا ﴾ وتؤكّد بالقول : ﴿ ومن أصدق من الله قيلاً ﴾ ؟ والجواب معروف . إنّه لا أحد أصدق قولاً من

---

(١) تفسير الطّبريّ ٥/١٨٤ .

الله تعالى ولا أحد أوفى منه جلّ وعلا وعداً . ويلاحظ أنّ الحديث عن الوعد ووصفه بهذه الأوصاف المؤكّدة حدوثه في مقابل وعود الشّيطان الرّجيم المعسولة المكذوبة التي لا أوّل لها ولا آخر . إنّ ربّ العزّة يبيّن لعباده طريقي الخير والشرّ كي يسلكوا الأوّل ويهجروا الآخر ، وهم وراء ذلك مجزيّون على الإحسان إحساناً وثواباً ، وعلى الإساءة عقاباً وعذاباً .

كان رسول الله ﷺ يقول في خطبته : إنّ أصدق الحديث كتاب الله ، وخير الهدى هدي محمّد ﷺ ، وشرّ الأمور محدثاتها ، وكلّ محدثةٍ بدعة ، وكلّ بدعةٍ ضلالة ، وكلّ ضلالةٍ في النّار[1] .

---

(١) تفسير ابن كثير ٥٥٦/١ .